
47
روايات عالمية للجيب
Looloo
www.dvd4arab.com
أوديسا الفضاء
تأليف : آرثر كلارك
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي ، في مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف



لقاء آخر مع الخيال العلمي الحقيقي .. الخيال العلمي الملتزم بقضايا البشرية في ضوء التطور العلمي ..

وهو ما يختلف كثيرًا عن أوبرات الفضاء وسيوف الليزر والآليين الثرثارين سليطي اللسان ، والإمبراطورية الحانقة دومًا ، و«حدث في زمن بعيد بعيد .. في مجرة بعيدة بعيدة» قابلنا راي برادبوري في رائعته (451 فهرنهايت) منذ عام تقريبًا ، واليوم نقابل واحدًا من كبار (المناضلين) هو السير (آرثر س . كلارك) ..

لقد كتب آرثر كلارك نحو ثمانين كتابًا وخمسمائة مقال . ولد عام 1917 في (سومرست) ، وفي العام 1936 انتقل إلى لندن . وتبدأ الحرب العالمية

الثانية فيعمل فنيًا للاتصالات بالسلاح الجوى البريطانى ويكتسب خبرة علمية جيدة فى هذا العمل . عام 1947 يكتب أولى قصصه (مقدمة إلى الفضاء) ، ثم فى عام 1948 يلتحق بدورة لدراسة علم الفلك ، ويكتب أهم مجموعاته القصصية (الحارس) . وبدأت شهرته تتحقق عندما قدم قصته (نهاية الطفولة) .

كان مولعًا بالغوص إلى أعماق البحر ، وقد اتجه عام 1956 ليعيش فى (سريلانكا) ـ التى كانت (سيلان) وقتها ـ ويعتبرها بيته حتى اليوم ، حيث يمارس هوايته هذه ، لكنه يغادرها كل عام ليلقى بعض محاضرات حول العالم وأمريكا على وجه الخصوص . أصابه الشلل عام 1962 مما اضطره إلى أن يودع البحر الحبيب بقصته (جزيرة الدرافيل) . استمر فى الإنتاج الغزير حتى العام 1986 حين قرر الأطباء أنه مصاب بداء (لو جيريش) وقيل إنه سيعيش عامًا ونصف عام على الأكثر .. هكذا راح يعمل كالمحموم لمدة عام حتى تبين أن التشخيص الأول خطأ .

عام 1986 نال لقب (السيد العظيم) من رابطة كتاب الخيال العلمى الأمريكيين . كما نال حشدًا هائلاً من الألقاب ، وهو من الكتاب الذين تثق بهم منظمة اليونسكو بشكل خاص ، وعضو فى الجمعية الفلكية الملكية .

* * *

القصة التى نقدمها اليوم من نماذج الأدب الذى يترجمونه بـ (الأدب الملفق أو المنسوج) .. وهذا ليس ذمًا .. إن الـ Spin -- Off Tale هى نوع أدبى شائع فى الغرب ، وقد قدمنا من قبل (لقاءات لصيقة من النوع الثالث) كنموذج لهذه القصص . من المعتاد أن يكتب الكاتب القصة ثم يخرجها المخرج ، لكن الحال هنا هو العكس . إن الفيلم الذى صنع عن قصة كلارك أوحى له بقصة جديدة !

لقد أعجب المخرج الكبير (ستانلى كوبريك) بقصة قصيرة لكلارك هى (الحارس Sentinel) ، وجرت مجموعة

من المشاورات أدت إلى أن يقضى (كلارك) الفترة من عام 1964 إلى 1968 منهمكًا فى تطوير سيناريو هذه القصة ، ثم قدمها (كوبريك) فى فيلم أثار ذهول العالم عام 1968 هو (2001 : أوديسا فضائية) .. الفيلم الذى كان وما زال أهم وأعمق وأمتع وأدق فيلم خيال علمى فى التاريخ على الإطلاق ، والذى فاق (حرب الكواكب) فى كل شىء حتى على المستوى التقنى برغم أنه أنتج قبله بعشرة أعوام . بعد نجاح الفيلم الباهر أعاد (كلارك) كتابة القصة كما ظهرت فى الفيلم ليخرج هذا الكتاب الذى بين يديك الآن . وإن أخذ عليه النقاد أنه أفسد جو الغموض الثرى المحيط بالفيلم ، ليقدم تفسيرات جافة صارمة . أى أنه استبدل النثر العلمى المحدد بالشعر الجميل الملىء بالخيال .

كما فى الفيلم تدور الفكرة المحورية لهذه القصة حول تقدم البشرية المذهل والسريع .. لكنها برغم هذا

لم تصل لأى مكان ، كأنها طفل رضيع تائه فى الفضاء الخارجى . هذه قصة ممتعة لكنها مقبضة خالية تمامًا من الأمل .. ولقد صرنا الآن نألف حقيقة أن كتاب الخيال العلمى المعاصرين لا يملكون أى تفاؤل بصدد الغد ، بعكس أسلافهم الذين اعتقدوا أن التقدم العلمى المطرد هو الطريق إلى سلام البشرية وسعادتها .

نرجو أن تروق لك القصة ، ونعدك بأن نتعرف الكتاب الجادين الآخرين من أمثال (أزيموف) و(هاينلاين) و(زيلانى) فى كتيبات أخرى من هذه السلسلة .

د. أحمد خالد

١ ـ ليل بدائى ..

١ ـ الطريق إلى الانقراض ..

لقد استمر الجفاف عشرة ملايين من الأعوام حتى الآن ، وقد زالت مملكة الزواحف العملاقة منذ زمن بعيد . وهنا فى خط الاستواء فى القارة ستدعى يومًا : إفريقيا ، كانت معركة البقاء قد بلغت مرتبة جديدة من الشراسة ، لكن المنتصر لم يظهر بعد .

فى هذه الأرض القاحلة لم يكن إلا صغير الحجم أو السريع أو القوى قادرًا على الازدهار ، أو يملك حتى الأمل فى البقاء .

لم يكن الرجال البدائيون فى هضبة الترانسفال يملكون هذه الصفات . لقد اقتربوا جدًا من الانقراض فى الواقع . وقد احتل نصفهم الكهوف التى تطل

على واد جاف ، قسمه مجرى ماء انحدر من ثلوج الجبال على بعد مائتى ميل شمالاً . وفى الأوقات العصبية كان المجرى يختفى تمامًا ، وتعيش القبيلة فى ظلال الظلمأ .

كان الجوع شعورًا دائمًا ، والآن صار التضور . وحين تسرب أول شعاع من الفجر إلى الكهف ، أدرك مراقب القمر أن أباه قد مات فى أثناء الليل . لم يكن يعرف أن العجوز أبوه ، لأن علاقة كهذه كانت تتجاوز فهمه ، لكنه إذ نظر للجسد الضامر الميت شعر بعدم راحة هى جد الحزن .

كان الطفلان ينشجان طلبًا للطعام ، لكنهما صمتا حين زمجر مراقب القمر فيهما . وفى محاولة من إحدى الأمهات للدفاع عن رضيعها ، أطلقت زمجرة غاضبة فى وجهه . فلم يجد فى نفسه القوة لإخضاعها .

الآن صار النور يسمح بالرحيل . جذب مراقب القمر

الجثة وجرها خلفه وهو ينحنى ليعبر فتحة الكهف الضيقة . الآن وقد غادر الكهف تخلص من الجثة ووقف منتصبًا .. إنه الكائن الوحيد فى العالم القادر على الوقوف بهذه الطريقة .

بالنسبة لقومه كان مراقب القمر عملاقًا .. كان ارتفاعه خمسة أقدام(*) ووزنه مائة رطل .. كان جبينه منخفضًا وكان هناك أخدودان فوق محجريه ، لكن جيناته بالتأكيد كانت تحمل الوعد بالإنسانية الكاملة . فى عينيه كان هناك شىء ما .. نوع من الوعى .. أقرب شبهًا بالذكاء الذى يحتاج إلى أعوام حتى يحقق نفسه .

لم تكن هناك علامات على الخطر ، لذا بدأ مراقب القمر ينحدر عبر المنحدر شبه العمودى . وكأنما كانت القبيلة تنتظر إشارته فبدأت تلحق به .

(*) أى متر ونصف ووزنه خمسة وأربعين كيلومترًا .. هذا يدل على ضآلة حجم العشيرة عامة .

وهرع الجميع إلى مجرى الماء الموحل من أجل جرعة ماء الصباح.

بحث مراقب القمر عن الآخرين ، فلم ير لهم أثرًا .. هكذا نسيهم على الفور ، فهو لم يكن يملك القدرة على الاهتمام بشيئين فى الوقت ذاته .

أولاً يجب أن يتخلص من العجوز .. لكن هذه كانت مشكلة تحتاج إلى قليل من التفكير . لقد مات الكثيرون هذا الموسم ، وعليه أن يضع الجثة حيث ترك الأخريات كى تتولى الضباع المهمة .

كانت بانتظاره هناك حيث يتفرع الوادى إلى حقول السافانا ، كأنما تعرف أنه قادم . ترك مراقب القمر الجثة تحت شجيرات صغيرة وهرع ليلحق بالقبيلة . لم يفكر فى أبيه مرة أخرى بعد هذا .

كانت رفيقتاه والأطفال يبحثون بين الشجيرات الجافة عن جذور أو توت أو سحال ألقت بها الريح

هنا . لم يبق فى الكهوف إلا الرضع وأضعف الشيوخ ، فلو بقى بعض الطعام بعد نهاية اليوم سيتم إطعامهم . أما لو لم يبق ستستعيد الضباع حظها السعيد من جديد .

برغم أن مراقب القمر لم يكن يتذكر الماضى ، ولا يستطيع مقارنة الأيام ، فإن اليوم كان مجدود الحظ لقد وجد خلية نحل فى جذع شجرة عجوز ، وهكذا فاز بأفضل قائمة طعام يمكن أن يحظى بها قومه . وكان مازال يلعق أنامله حين اقتاد المجموعة عائدين عصرًا . بالطبع اصابته لدغات كثيرة . لكنه لم يلحظها .

كان الآن أقرب إلى الرضا ، برغم أنه لم يشبع بعد ، لكنه على الأقل لم يعد واهنًا من الجوع . وهذا أفضل شىء يمكن لأمثاله أن يظفروا به .

لكن رضاه تبخر حين بلغ الماء ووجد الآخرين .. كانوا هناك كل يوم وما كان هذا ليضايقه من قبل .

كانوا ثلاثين لا يمكن أن تميزهم من قوم مراقب القمر .. وإذ رأوه قادمًا بدءوا فى الرقص والصراخ ، فرد قومه بالمثل .

برغم أن البدائيين يتشاجرون مع بعضهم دومًا ، لم تكن معاركهم تحدث إصابات خطيرة . لم تكن فى أيديهم مخالب ولا لهم أنياب حادة ، وبالتالى كانت قدرتهم على الإيذاء محدودة بالإضافة لهذا لم تكن لديهم طاقة إضافية لهذا السلوك غير المنتج . كان الصراخ والتكشير عن الأنياب طريقتين أكثر فعالية فى التعبير عن وجهات النظر .

استمرت المواجهة خمس دقائق ، ثم انتهى العرض بسرعة كما بدأ . وبدأ الجميع يشرب الماء القذر .. لقد تم إرضاء الشرف وعبرت كل مجموعة عن حقها ..

عادت القبيلة لكهفها دون حدث يذكر . وأطلقت المرأة المصابة التى ظلت فى الكهف صيحة رضا

حين أعطاها مراقب القمر الغصن المغطى بالتوت الذى جلبه لها . لم يكن هذا طعامًا كافيًا ، لكنه سيمنحها القدرة على الحياة حتى يشفى الجرح الذى أصابها به الفهد ، ويمكنها البحث بنفسها من جديد .

وعبر الوادى كان قمر مكتمل يبزغ .. وكانت ريح باردة تهب من الجبال البعيدة . سيكون ليلاً قارس البرد .. لكن البرد مثل الجوع لم يكن موضوعًا للاهتمام .. كان جزءًا من خلفية الحياة ذاتها .

لم يتحرك مراقب القمر حين سمع الصراخ من أحد الكهوف السفلى .. ولم يحتج إلى سماع زئير الفهد كى يعرف ما يجرى بالضبط .

هناك فى الظلام كان (الشعر الأبيض) العجوز وأسرته يقاتلون ويموتون .. وفكرة المساعدة لم تخطر قط بذهن مراقب القمر . كان منطق البقاء الخشن يحكمه . كانت الكهوف كلها صامتة خشية أن تجتذب الكارثة بدورها .

انتهت الضوضاء ، والآن صار بوسع مراقب القمر أن يسمع صوت جسد يجر فوق الصخور . ثم تمكن الفهد من السيطرة على فريسته فابتعد فى سلاسة وفريسته بين فكيه .

لمدة يومين لن يكون هناك خطر هنا .. لكن ربما كان هناك أعداء آخرون يستغلون فرصة هذه الشمس الصغرى التى تسطع فى الليل فقط . إن الوحوش الصغرى يمكن إفزاعها بالصراخ .. وزحف مراقب القمر إلى خارج الكهف وجلس القرفصاء يراقب الوادى .

بين كل المخلوقات التى مشت على الأرض ، كان هؤلاء البدائيون أول من نظر بثبات إلى القمر . وبرغم أنه لا يذكر هذا ، فإن مراقب القمر كان فى صغره يمد يده محاولاً الإمساك بذلك الوجه الشبحى فوق التلال . لم ينجح قط .. والآن قد شاخ بما يكفى لفهم السبب .. فى البداية عليه أن يجد شجرة عالية بما يكفى .

أحيانًا كان يراقب القمر لكنه كان يصغى طيلة الوقت . نام مرتين لكن بتحفز وحشى . فى سن الخامسة والعشرين ـ وهى سن متقدمة ـ كان مازال يحتفظ بقدراته . فلو واتاه الحظ وتحاشى الأوبئة والوحوش والجوع فلربما يعيش عشرة أعوام أخرى .

ارتفع القمر ببطء فوق النجوم الاستوائية التى لن يراها بشر . وفى الكهوف بين النوم والانتظار القلق ، كانت تولد كوابيس أجيال لم تولد بعد .

ومرتين عبر السماء ببطء ضوء يغشى الأبصار ، أكثر بريقًا من أى نجم .

* * *

٢ ـ الصخرة الجديدة ..

فى ساعة متأخرة من الليل صحا مراقب القمر .. كان جهد اليوم قد أنهكه ، لذا نام بسلام أكثر من المعتاد . لكنه تيقظ إذ سمع أول ضوضاء من الوادى .

جلس فى ظلام الكهف العفن ، وأجهد حواسه ، وزحف الخوف على روحه ببطء . لم يسمع قط صوتًا كهذا فى حياته التى تبلغ ضعف متوسط حياة أفراد عشيرته . إن القطط الكبيرة تزحف فى صمت ، ولايكشف أمرها إلا انزلاق الأرض . ولكن هذا الصوت كان صوتًا يتعالى باستمرار . كأنما وحش عملاق يمشى فى الليل ويتجاهل كل العقبات ، ولايحاول إخفاء صوت خطواته . ومرة سمع مراقب القمر صوت شجرة تقتلع .. الأفيال تفعل هذا كثيرًا ، لكنها عدا ذلك تتحرك فى صمت كالقطط .

ثم سمع صوتًا لم يستطع معرفة كنهه ، لأنه لم يسمع من قبل فى تاريخ البشرية .. كان صوت معدن يرتطم بصخرة .

رأى مراقب القمر الصخرة الجديدة ، حين خرج بعشيرته فى الفجر إلى النهر . كان قد نسى مخاوف الليل ، لأن شيئًا لم يحدث بعد الضوضاء الأولى . على الأقل لم يحدث ما يخيف .

كان لوحًا مستطيلاً يفوق ارتفاعه ثلاث مرات ، لكنه رفيع يمكن أن يحتويه بذراعيه ، وكان مصنوعًا من مادة شفافة تمامًا . بالواقع كان عسيرًا أن تتبينه ما لم تلمع الشمس على جنباته . لم يكن مراقب القمر قد رأى الثلج قط ، لذا لم يكن هناك شىء يمكن أن يشبه به هذا الجسم . كان مغريًا وبرغم أن مراقب القمر كان يحذر كل شىء جديد ، لم يتردد فى الاتجاه له . لما لم يحدث شىء راح يتحسس سطحه البارد .



كان لوحًا مستطيلاً يفوق ارتفاعه ثلاث مرات ، لكنه رفيع يمكن أن يحتويه بذراعيه ..

وكان التفسير الذى توصل إليه مراقب القمر بعد أربع دقائق من التفكير ، هو أن هذا الجسم صخرة .. صخرة نبتت فى الليل كما تنمو النباتات .. وبالطبع يمكن أن يكون مذاقها طيبًا كمذاق بعض النباتات .

لكن بعض لعقات ومحاولات لقضم قطعة سرعان ما قضت على أحلامه . لا غذاء هنا .. وكأى بدائى عاقل اتجه للنهر ونسى كل شىء عن العمود الحجرى .

كان البحث عن طعام غاية فى السوء اليوم .. واضطرت القبيلة إلى السفر عدة أميال لتجد أى طعام وقد تهاوت إحدى النساء تحت القيظ ، فالتف رفاقها حولها عاجزين عن إسداء أى عون لها . لو كان لديهم فائض من طاقة لاحتملوها معهم لكنهم منهكون تمامًا عليها أن تبقى حيث هى وأن تشفى أولاً ، تشفى بقدرتها الخاصة . وحين مروا بمكانها فى المساء لم تكن قد بقيت منها عظمة واحدة ..

وفى المساء عادوا لكهوفهم بعد ما شربوا جرعة المساء ، حين دوى الصوت .

كان لايكاد يسمع ، لكنه جعلهم يتصلبون . وقفوا وقد تدلت فكوكهم السفلى . ذبذبة متكررة تبعث الجنون وتخدر كل من يقترب من الجسم الشفاف .. للمرة الأولى والأخيرة قبل ثلاثة ملايين عام ، يدوى صوت طبول فى إفريقيا .

بدأ البدائيون يمشون كالنيام نحو مصدر تلك الجلبة . واحتشدوا حول العمود الحجرى ناسين مشاقّ اليوم .. والجوع فى أحشيائهم .

تعالت القرعات وازداد الليل جهامة . وإذ استطالت الظلال بدأت البلورة تلمع . فى البدء فقدت شفافيتها وغمرها ضوء شاحب لبنى ، وثمة أشباح مبهمة تتحرك على سطحها . ثم بدأت تتخذ شكلاً شبكيًا راح يدور .

بسرعة وبسرعة دارت عجلة النور ومعها ازداد إيقاع الطبول ، ووقف البدائيون منومين مغناطيسيًا ناسين الدرس الذى تعلموه من أسلافهم .. ما من أحد منهم يجرؤ على الابتعاد عن كهفه كل هذه المسافة .

العرض الضوئى يزداد إبهارًا .

كانوا يقفون غير عالمين أن عقولهم تُفحص ، وأن أجسادهم تُرسم بالتفصيل ، وأن استجاباتهم تُدرس . وفى النهاية كان الرجل البدائى الأقرب إلى الجسم هو أول من عاد للحياة .

لم يفارق مكانه لكن عينيه راحتا تنظران حوله ، وأصابعه تنفتح وتنغلق ، ثم انحنى ليمسك ببعض الأعشاب ويحاول ربطها فى شكل عقدة . بدا كأنما تستحوذ عليه روح شريرة ، وأنامله تحاول القيام بعمل معقد لم يفلح فيه من قبل . ولكنه لم ينجح إلا فى تهشيم الأعشاب الجافة فنهض وعاد متصلبًا عاجزًا عن الحركة .

حاول أحد صغار السن الشىء ذاته ، وفى هذه المرة نجح . وعلى كوكب الأرض وللمرة الأولى ولدت العقدة الأولى .

البعض راح يفرد ذراعيه ، والبعض راح يحاول

أن تلامس أطراف أنامله بعضها ، جاء دور مراقب القمر فوجد أن الشىء كف عن التألق ، ولكن دوائر متدرجة فى الصغر كأنها هدف رماية ـ أو عين الثور(*) ـ ظهرت على الجدار ، وبوازع من ذهنه وجد أنه يلتقط حجرًا فيلقى به نحو مركز الدوائر ، لكنه أخطأ .

قال له الأمر الصادر فى ذهنه : جرب ثانية .. بحث عن حجر ، وهذه المرة ضرب الجسم بصوت رنان كالجرس . كانت ذراع مراقب القمر تتحسس ، وفى المرة الرابعة كان قد دنا جدًا من قلب الهدف ، فغمر عقله شعور بالنشوة لايمكن وصفه . ثم زالت السيطرة عليه فلم يعد راغبًا فى عمل شىء إلا أن يقف ويراقب .

وهكذا راح واحد تلو الآخر من العشيرة يأتى بعمل ما تحت الاستحواذ .. البعض نجح وفشل أكثرهم ، ونال كل منهم جزاءه إما بالنشوة أو بتقلصات الألم .

(*) التعبير الإنجليزى يطلق على منظر دوائر الرماية اسم (عين الثور Bull Eye)

وخبا وميض الجسم وكف عن رقصات الضوء ، فابتعد البدائيون متجهين نحو كهفهم . ولم ينظر أحدهم إلى الوراء ليرى الشىء العجيب ، الذى يقودهم بضوئه إلى مستقبل لايعرفونه ولا تعرفه النجوم .

* * *

٣ـ المدرسة ..

لم يتذكر مراقب القمر ورفاقه ما رأوه ، بعد ما كفت البلورة عن تحذير عقولهم ، وحين خرجوا للبحث عن الطعام مروا بها دون أدنى انتباه ، فقد صارت جزءًا من الخلفية المهملة لحياتهم لايمكنهم أن يأكلوها ولا يمكنها أن تأكلهم لهذا لا أهمية لها .

لم يكن هناك شىء غير معتاد ، ولم يمت أحد . وفى المساء كانت البلورة مازالت تنتظر وتشع نورها الغامض ، ولكن البرنامج الذى أعدته كان مختلفًا تمامًا ، وقد انتقت أشخاصًا بعينهم هذه المرة بينما تجاهلت الآخرين .

حين جلس مراقب القمر فى الكهف وقد نام الباقون ، كان يشعر بلون من الحسد .. نوع من عدم الرضا عن حياته . وهو شعور لم يخطر له قط ، ولم يدر ماذا

يفعل ليقاومه .. لكنه دون أن يدرى كان قد خطا خطوته الأولى نحو التحضر . كانت هناك رؤيا تطارده لا يعرف مصدرها ، تمثل أسرة من رجل وامرأة وطفلين يبدو عليهم الشبع ويغطى الدهن ضلوعهم ، ولا يبدو عليهم الجوع أو السقم ..

فى الأيام التالية استمرت هذه المشاعر .. كانت مهمة شاقة ، لكن البلورة كانت صبورًا .. لم تتوقع نجاحًا سريعًا لها ولا للنسخ الأخرى منها المتناثرة عبر الكرة الأرضية . مائة فشل لن يحدث فارقًا بينما يكفى نجاح واحد كى يغير مصير العالم .

إذ مشى قطيع الخنازير الوحشية ذات الأنياب ، تصلب مراقب القمر ، كان البدائيون والخنازير يتجاهل بعضهم البعض ، لأنه لم يكن هناك صراع على المصالح بينهم ولا تنافس على الطعام . لكنه الآن وقف يراقب الخنازير .. كانت تحركه دوافع لا يستطيع فهمها . وكأنما يحلم ، بدأ يفتش فى الأرض غير عالم عن أى شىء يفتش ، لكنه سيعرفه حين يراه .

كانت صخرة مدببة طولها ست بوصات ، ولم تكن ملائمة ليده بالضبط ، لكنها تصلح ، طوح يده مندهشًا للثقل الذى اكتسبته وشعر بالقوة ، ثم اتجه نحو أقرب خنزير .

كان حيوانًا صغيرًا أحمق حتى بمقاييس الخنازير . ولم يأخذه بجدية إلا بعد فوات الأوان . سرعان ما هوى الحجر عليه فهوى أرضًا ، بينما ظل باقى القطيع واقفًا يأكل .

احتشد البدائيون حول مراقب القمر وفريسته فى إعجاب مندهش ، ثم حمل كل منهم حجرًا أو صخرة وانهال على الخنزير الميت .

بعد قليل ابتعد البدائيون وقد سئموا هذه اللعبة ، لكن مراقب القمر كان قد عرف الحقيقة .. حقيقة أنه لن يجوع بعد اليوم .

* * *

٤ـ الفهـــد ..

كانت الأسلحة التى تعلموا استعمالها بسيطة جدًا ، لكنها كانت ستغير وجه الأرض وتجعل البدائيين هم السادة . كان أبسطها حجرًا يضاعف قوة الضربة عدة مرات . ثم هناك قطعة العظم التى تبعد مدى الهجوم وتبعد عنك المخالب والأنياب . بهذه الأسلحة صار الطعام الذى يجوب السافانا ملكًا لهم .

كانوا بحاجة إلى أدوات أخرى ، فابتكروا مدية يمكنها أن تجرد العظام من اللحم ، وهى نموذج صالح للثلاثة ملايين سنة القادمة . كانت هى الفك السفلى لظبى ولن تكون هناك تحسينات حتى يجىء عصر الحديد . وهناك خنجر جاء من قرن غزال .

ربما لو منحوا الوقت لابتكروا هم هذه الأسلحة بأنفسهم ، لكن الوقت كان ضدهم ، وكانوا مهددين بالانقراض فعلاً . لقد منح البدائيون فرصتهم الأولى لكن لن تكون هناك فرصة ثانية .. لقد صار مستقبلهم حرفيًا فى أيديهم .

كان الأطفال يولدون وأحيانًا يعيشون .. ضعيفين بلا أسنان ويموتون قبل الثلاثين . وخلال عام تبدل حال مراقب القمر وعشيرته بما يفوق الوصف .

لقد ولت ذكريات الجوع ، وبرغم أن الخنازير صارت خجولاً تحب التوارى ، فقد كانت هناك غزلان وظباء .. كلها صارت فرائس للصيادين الجدد .

الآن صار بوسعهم ـ وقد زال عنهم الجوع ـ أن يجدوا متسعًا للتفكير . لم يربطوا قط بين هذه التغيرات والعمود الحجرى الواقف قرب النهر . فى الواقع كانوا قد نسوا تمامًا أية طريقة أخرى للحياة .

لكن لا توجد يوتوبيا بلا عيوب . العيب الأول كان الفهد الذى ازدادت شهيته للبدائيين بعدما صاروا أحسن تغذية ، والآخر كان تلك القبيلة عبر النهر .. فلسبب ما استطاع الآخرون أن يبقوا أحياء ، وبعناد رفضوا أن يموتوا جوعًا .

حلت مشكلة الفهد بالصدفة ، نتيجة خطأ ارتكبه مراقب القمر ، برغم أنه وقتها وجد الفكرة عبقرية ورقص طربًا .

كانت هناك أيام عصيبة لاتفلح فيها القبيلة فى صيد شىء ، وفى ذلك اليوم إذ عادوا لكهفهم وجدوا إحدى هدايا الطبيعة الثمينة : ظبـى يرقد علـى الأرض وقد كسرت قائمته الأمامية ، لكنـه كـان قادرًا على المقاومـة ، وقد وقفت بنات أوى ترمق قرونه الحادة فى احترام .

التف البدائيون حوله فى حذر من قرنيه ، ثم انقضوا عليه بالحجارة فلم يتركوه إلا كومة من اللحم . لكن إذ نـال الظبى راحته النهائية كـان الظلام قد حل ، واستعادت بنـات أوى شجاعتها ، وأدرك مراقب القمر أن كل هذا الجهد قد يضيع سدى . من الخطر البقاء هنا بعد الآن .

هنا خطرت له فكرة .. لماذا لايجر الظبى للكهف ليأكله هناك ؟ لم تكن هذه أول مرة يبرهن فيها على أنه عبقرى . ولم يتصور قط كم الجهد الـذى سيكلفه إياه هذا العمل وهو يجر الجسد الثقيل فـوق المنحدر لولا معونة رفاقه . لكن تـم الأمـر فـى النهاية ودخـل الظبى الممزق من حافة الكهف ، وبدأ العشاء .

بعد الأكل جلس مراقب القمر بمعدة ممتلئة يتأمل النـائمين مـن حولـه .. لايعـرف السـبب لكنـه قـرر الخروج من الكهف قليلاً .. جلس فـى الخـارج يراقب الوادى الصامت المظلم من تحته ..

هنـا جـاءه صوت حصوة تسقط .. كـان خائفًا لكن الفضول يغمره اتجه مراقب القمر ليرى مصدر الصوت . لكن مارآه جعله يتصلب مشلولاً من الرعب . على بعد عشرين قدمًا فوقه كانت عينان تتقدان نارًا وتنظران لـه مباشرة . وقد نومتاه إلى حد أنـه لـم يشـعر بالجسد الرشيق الذى يزحـف فـى صمت بين الصخـور . لـم يتسلق الفهـد قط إلـى هـذا الارتفـاع .. لقـد تجـاهل محتويات الكهـوف السـفلى ، وهـو يسـعى الآن لنـوع جديد من الفرائس بعد ما أثارته رائحة الدم .

بعد ثوان دوى صراخ البدائيين من الكهوف العليا ، فكشر الفهـد عن أنيـابه بعـدما أدرك أنـه فقد مزية المفـاجـأة ، لكنـه لم يتراجـع لأنـه يعـرف أنه لايوجـد مـايخشـاه .

ودون تردد دخل الكهف الذى يفوح برائحة الدماء .

كان هذا خطأه الأول لأن البدائيين وجدوا أنهم محاصرون ، وقد منحهم هذا شجاعة وقوة واستعدادًا للمواجهة .. تلك المواجهة التى يملكون أدواتها الآن .

شعر الفهد أن هناك خطأ ما حين تلقى أول ضربة على رأسه .. زمجر وأنشب مخالبه فى لحم طرى ، ثم زأر إذ اخترق شىء حاد خصره .. استدار حول نفسه ليضرب الظلال التى تصرخ وتلتف حوله .

شىء ما هوى على خطمه فأطبق عليه لكن أنيابه أطبقت على عظم عار .. والآن وفى مهانة لاتصدق كان هناك من يجره من ذيله ..

استدار وألقى بالمهاجم ليضرب الجدار .. لكن كان من المستحيل أن يفر الآن وسط كل هذه الضربات .. واستحالت زمجرته من الألم إلى الإنذار .. ومن الإنذار إلى الرعب الصريح .

هنا ارتكب خطأ ثانيًا .. لقد نسى أين هو .. وثب من الكهف فقط ليهوى عبر المنحدر .. وسرعان مادوى صوت ارتطام وهو يتهشم أسفل الأخدود ، ثم لم يعد من صوت إلا انهيار الأحجار فى الظلام .

راح مراقب القمر يرقص على مدخل الكهف .. فللمرة الأولى يجد أنه ليس الضحية العاجزة .. ولأول ليلة فى حياته نام نومًا هادئًا متصلاً .

* * *

٥ - لقاء فى الفجر ..

فى الطريق إلى النهر فجرًا توقف مراقب القمر عند بقعة مألوفة ، وشعر بأن شيئًا ما غير موجود هنا .. شيئًا اعتاد أن يراه واختفى فجأة . لكنه لم يمعن التفكير لأنه كانت لديه أعمال أهم لهذا اليوم .

لقد اختفت البلورة بغموض كما جاءت .. مثلها مثل البروق والرعود ، صارت جزءاً من الماضى الذى لاوجود له .. لكن هذا لم يضايق مراقب القمر .

رآه أفراد العشيرة المنافسة من ناحية النهر الأخرى ، فبدءوا فى الصراخ كما يحدث كل يوم ، لكن هذه المرة دون إجابة ..

بثبات وتصميم وصمت هبط مراقب القمر ورفاقه نحو النهر .. هنا صمت رجال القبيلة المعادية .. شعروا بشكل غامض أن هناك شيئًا ما غير مريح ، وأن هذه المواجهة سوف تختلف عن كل المواجهات السابقة ..

رفع مراقب القمر ذراعه فى الهواء ، وكان يحمل غصنًا غليظًا ثبت عليه رأس الفهد تلتمع أسنانه الحادة فى الشمس .. وعبر النهر ..

كان ذو الأذن الواحدة زعيم العشيرة يقف ثابتًا .. ربما لأنه كان أشجع أو أغبى من أن يفر .. ربما لأنه لم يتصور أن هذا الخرق الفاضح يحدث . لافارق إذ هوى الموت على رأسه .

فر الباقون ، وبعد قليل سينسون كل شىء عن زعيمهم هذا ..

وإذ وقف مراقب القمر أمام الجثة كان يشعر بأنه سيد العالم .. لكنه لم يعرف ما يجب أن يفعله بعد هذا ..

لكنه سيفكر فى شىء ما ..

* * *

٦ ـ صعود الإنسان ..

لقد سيطر الإنسان على الكوكب .. زاحفًا ببطء من قلب إفريقيا . مازال نادرًا بحيث يسهل ألا تراه وسط بلايين المخلوقات على الأرض والبحر ، وما من دليل حتى الآن على أنه سيستمر .

عبر مائة ألف عام منذ هبطت البلورة على الأرض ، لم يخترع البشر شيئًا .. لكنهم اكتسبوا مهارات عدة ، وصارت رماحهم أقوى . لم يعودوا معرضين للموت إذا سقطت أسنانهم أو تهشمت .. يمكنهم استخدام آلات تنتزع اللحم من العظام . مازال أمام الكلام مليون سنة لكن الخطوات الأولى نحوه قد بدأت .

ثم تغير العالم فى أربع موجات كبرى يفصلها عن بعضها ألفا عام . جاء عصر الجليد تاركًا أثره على الكرة كلها وهلك من لم يقدروا على التكيف .

لكن البدائيين اكتسبوا مهارة فى صنع الأدوات ، وهذه بدورها جعلت أيديهم وعقولهم أكثر دقة ، من ثم استطاعوا صنع أدوات أفضل .

وانتقلت خبرات جيل إلى جيل آخر وازداد التقدم . وتعلم الإنسان أن يكون له ماضٍ ، وبدأ يفهم معنى المستقبل .

لقد استطاع ترويض النيران .. وأخلى الحجر مكانه للبرونز ، ثم الحديد . تلت الزراعة الصيد ، وصارت القبيلة قرية والقرية مدينة .

كان جسمه يضعف باستمرار مع الوقت ، لكن قدرته على التدمير كانت تتزايد ، وتعلم كيف يقتل الناس عن بعد دون التحام . الرمح ثم القوس ثم

الرصاصة وفى النهاية الصاروخ الموجه .. كل هذه الأشياء أعطته قوة بلا حدود .

ومن دون هذه الأسلحة ما كان الإنسان ليغزو العالم . لقد وضع فيها روحه وقلبه ، وخدمته هى لعصور طويلة .

لكن الآن وما دامت هذه الأسلحة موجودة ، فإنه يعيش فى زمن ليس ملكه .

* * *

TMA - 11

٧ ـ رحلة خاصة ..

مهما غادرت الأرض تظل الإثارة هى نفسها .. فكر د. (هايوود فلويد) فى هذا .. لقد سافر للمريخ مرة وللقمر عدة مرات ، ولمحطات الفضاء أكثر مما يتذكر .. لكن الشعور بالعجب والتوتر كان لا يفارقه كلما دنت لحظة الإقلاع . كأنما لم ير الفضاء من قبل .

كانت النفاثة التى أحضرته هنا من واشنطون تهبط إلى منظر من أكثر المناظر ألفة لكنه كذلك أكثرها إثارة فى العالم .

قرب الأفق كان برج معدنى لامع تغمره الأضواء ، واقفًا هناك منذ عشرين عامًا كأثر قومى ، وعلى مسافة بعيدة منه شامخًا للسماء كأنما هو جبل من صنع الإنسان ، كان مبنى تجميع المركبات الذى مازال أكبر مبنى فى الأرض .

لكن هذه الأشياء الآن تنتمى للماضى وهو مسافر نحو المستقبل . استطاع لحظة الهبوط أن يرى من تحته متاهة من المبانى ومهبطًا عظيمًا للطائرات وفى النهاية تقف مركبة فضاء تلمع فى بركة من الأضواء ، متأهبة لرحلتها إلى النجوم . وتحت تأثير خداع البصر خيل لـ (فلويد) للحظة أنه ينظر إلى يرقة فضية صغيرة فى ضوء فلاش .

ثم بدأ يدرك الحجم الحقيقى للمركبة .. لابد أن عرضها مائة قدم على الأقل بين جناحيها .

وهذه المركبة العملاقة ـ فكر فى نوع من الكبرياء ـ تنتظرنى . على قدر علمه تلك أول مرة تعد فيها رحلة كاملة لنقل رجل واحد إلى القمر .

كان الصحفيون ينتظرون ، وهو قد ألفهم بصفته رئيس المجلس القومى لعلماء الفلك .. لكن الوقت لم يكن مناسبًا ، ولم يكن عنده ما يقال .. إلا أنه حرص على عدم مضايقتهم .

ـ « د.(فلويد) .. أنا (جيم فورستر) من (أسوشيتد نيوز) .. هلا أعطيتنا بضع كلمات عن رحلتك هذه ؟ »

ـ « آسف .. لا أستطيع قول شىء .. »

ـ « لكنك قابلت رئيس الجمهورية اليوم ؟ »

ـ « أوه .. أهلاً يا (مايك) .. يؤسفنى أنهم انتزعوك من الفراش بلا مبرر .. بالطبع لا تعليق .. »

ـ « هل هناك صحة لما يقال عن وباء فى القمر ؟ ماذا عن الحجر الصحى ؟ »

ـ « لا تعليق » .

ـ « كان يتجاهل الأسئلة ، بينما صحفى قصير القامة يركض خلفه محاولاً أن يبقيه فى مجال الكاميرا .. على قدر علم (فلويد) لم تكن هناك مشكلة .. بل هناك أزمة دائمة .. »

ـ منذ عام 1970 بلغ تعداد العالم ستة بلايين ، ثلثهم فى الإمبراطورية الصينية .. شح الطعام وبدت نذر

المجاعة ، وحتى الولايات المتحدة كانت تعرف أن أمامها خمسة عشر عامًا قبل الكارثة .

وبرغم الحاجة الماسة إلى التعاون الدولى ، كانت الحدود الجغرافية مثلها مثلما كانت فى الماضى .

والثمانية والثلاثون دولة نووية يراقب بعضها البعض فى توجس . لم تكن هناك جدوى من كل هذه القنابل النووية لأن وضع توازن الخوف هذا يمكن أن يستمر للأبد .. والآن يعرض الصينيون على الدول التى لاتملك ترسانة نووية شراء خمسين رأسًا نوويًا بتكلفة أقل من مائتى مليون ، وشروط سهلة فى السداد . ولم يفهم المراقبون سبب هذا العرض ، وقد افترضوا أن الصينيين يملكون أسلحة جديدة متطورة ، صارت القنابل النووية معها مجرد ألعاب . كان هناك كلام عن موجات لاسلكى منومة ، وعن أوبئة غامضة لايملك العلاج لها إلا الصينيون . وفى كل مرة يغادر فيها (فلويد) الأرض كان يتساءل عما إذا كان سيجدها فى مكانها حين يعود أم لا ..

رحبت به المضيفة على ظهر المركبة فشكرها .. وجلس فى مقعد من المقاعد الخالية ..

ربط الحزام ، على حين جاء صوت المضيفة من مكبر الصوت :

- « صباح الخير .. هذه هى الرحلة الخاصة رقم 3 من (كنيدى) إلى المحطة الفضائية رقم 1 . لسوف نفقد الوزن لمدة ثلاثين دقيقة .. الرجاء الالتزام بالمقعد حتى تضاء علامة الأمان » .

لم يتمالك إلا أن ابتسم .. فالمضيفة مصممة على روتين الطيران حتى فى وجود مسافر واحد فى الطائرة كلها .. واسترخى فى مقعده ..

هذه الرحلة ستكلف دافعى الضرائب مايربو على المليون دولار . لو كانت بلا جدوى فلسوف يفقد عمله ..

كان الإقلاع صعبًا كالعادة .. قوة القنبلة النووية فى المحرك خصصت كلها لانتزاع الطائرة من جاذبية

الأرض . وشعُر بأذنيه تنبضان والدم يفور فى أوردته . الآن يفارق الأرض وعليها كل من أحب فى حياته .. أطفاله الثلاثة فى الدار بلا أم بعدما فقدوها فى تلك الرحلة لأوروبا منذ عشر سنوات .

وجاء صوت الربان عبر مكبر الصوت :

ـ « نستعد للانفصال عن المرحلة الأولى .. الآن .. »

كان الشعور غير مريح .. فـ (الأمام) صار الآن هو (الأعلى) .. وهكذا تجد أن الطائرة تقف حرفيًا على ذيلها .. الآن تغادر المركبة المدار الأرضى ، فلو لم يكن مربوطًا بمقعده لطار .. على كل حال كانت معدته مصرة على ذلك .. وتمنى أن تؤدى الأقراص التى ابتلعها عملها .. إن لديه دوار فضاء وقد أصابه مرة واحدة .. وهذه المرة تعتبر أكثر من اللازم بالنسبة لمن يمارس عمله ..

ـ « سوف نهبط على محطة الفضاء خلال خمس وأربعين دقيقة .. »

دنت منه المضيفة وسألته إن كان يرغب فى شرب شىء ، فاعتذر .. كان يشعر دومًا بأنه رضيع كلما اضطر للشرب من تلك الزجاجات المطاطية بالشفاط ..

سألته وهى تزن كلماتها :

ـ « هل لى أن أسألك شيئًا يا دكتور (فلويد) ؟ »

ـ « حتمًا .. »

ـ « خطيبى جيولوجى فى (كلافيوس) ، ولم أسمع عنه منذ أسبوع .. كان يخبرنى دومًا بمساره .. لك أن تتخيل مدى قلقى .. هل تلك الاشاعات حقيقية عن وباء فى القمر ؟ »

ـ « حتى لو كانت حقيقية .. لقد حدث هذا مع وباء الأنفلونزا عام 1998 ولم يمت أحد .. هذا كل ما يمكننى قوله » ..

شكرته وابتعدت ، أما هو فغرق فى التقارير الفنية التى فى حقيبته ..

لن يكون هناك وقت للقراءة متى وصل إلى القمر ..

* * *

٨ ـ موعد مدارى ..

جاء صوت الربان بعد دقائق يقول :

ـ « لسوف نهبط .. الرجاء التأكد من حزام مقعدك .. »

أطاع فلويد ونحى أوراقه .. بعد دقائق استطاع أن يرى المحطة الفضائية رقم (1) على بعد أميال .. كانت الشمس تلتمع على المعدن الصقيل للقرص العملاق الدوار ببطء . وقرب القاعدة كانت السفينة (أريس) التى هى حصان شغل الفضاء ، بأرجلها الأربع الماصة للصدمات .

من هذا الارتفاع كان يرى الأرض .. يرى أكثر إفريقيا والمحيط الأطلنطى ..

وكان مركز محطة الفضاء يدور فى اتجاه معاكس

بعد دقائق استطاع أن يرى المحطة الفضائية ..

لدوران المحطة ذاتها ، بحيث لايشعر المسافرون الهابطون عليها بعدم راحة نتيجة الدوران .. وهكذا تلامست المركبة مع المحطة فى نعومة ، جاءت أصوات معدنية كالخدوش ، ثم صفر الهواء إذ تعادل الضغطان .

انفتح الباب العازل للهواء ، ودخل رجل يرتدى زى المحطة . ورحب بدكتور (فلويد) .. إنه يدعى (نيك ميلر) المسئول عن أمن المحطة . مشى (فلويد) وراء (ميلر) عبر درج ملتو إلى قلب المحطة .. فى البداية كان يشعر بأنه خفيف الوزن جدًا حتى إنه كان يمسك (بالترابزين) كى لايطير .. حتى وصل استراحة المسافرين بدأ يشعر بأنه اكتسب بعض الوزن .

كانت الاستراحة قد أعيد تجديد ديكورها منذ آخر مرة كان هنا ، وكانت هناك كبائن للهاتف فقال لمرافقه إنه راغب فى الاتصال بالأرض .. كانت هناك كبائن كتب عليها (مرحبًا فى قسم الولايات المتحدة)

وأخرى كتب عليها (مرحبًا فى قسم الاتحاد السوفيتى) .

طلب داره مستعملاً بطاقته الائتمانية ، وكان يعرف أن (واشنجتون) نائمة الآن لأن الفجر مازال بعيدًا ، لكنه كان يعرف أن مديرة المنزل ستتلقى المكالمة على المسجل صباحًا .

ترك لها بعض التعليمات وطلب منها أن تقبل الأطفال ، وتطمئنتهم إلى أنه لن يتأخر ..

هنا فوجئ فى القسم السوفييتى بآخر شخص كان يتمنى أن يراه .. وحاول أن يتوارى لكن الأوان كان قد فات ، كان هذا هو الدكتور (ديمترى مويسفتش) من أكاديمية العلوم السوفييتية . كان (ديمترى) من أعز أصدقائه ، لهذا كان آخر شخص يتمنى أن يراه هنا والآن .

* * *

٩ ـ مكوك القمر ..

كان رائد الفضاء السوفييتى طويلاً نحيلاً أشقر يشى وجهه بخمسة وخمسين عامًا ، قضى عشرة منها فى بناء المرصد اللاسلكى العملاق على الجانب الآخر من القمر .

قال وهو يهز يده بحرارة وقوة :

ـ « مرحبًا يا (هيوود) .. يا له من كون صغير ! كيف حالك وحال أطفالك الرائعين ؟ »

ـ « بخير .. دائمًا نتكلم عن الوقت الرائع الذى قضيناه معك .. »

كان (فلويد) يتكلم بمودة ولكن بتشتت ذهنى .. »

ـ « وأنت ذاهب إلى القمر ؟ »

ـ « نعم .. هذه مرحلة ترانزيت لا أكثر .. هل تعرف مستر (ميلر) ؟ »

ـ « بالطبع .. ولكن دعك من القهوة يامستر (ميلر) .. إننى مصمم على دعوة د. (فلويد) إلى الشراب .. »

وجلس الرجال جوار إحدى النوافذ العملاقة التى تريهم الأرض ، بينما المحطة تدور مبتعدة عنها ببطء .. قال (ديمترى) وهو يعبث بمشروبه :

ـ « الآن ما كل هذا الكلام عن وباء فى القسم الأمريكى من القمر ؟ هلا شرحت لى ما يدور ؟ »

شعر (فلويد) بالضيق .. ها نحن أولاء نبدأ من جديد .. كلما أسرعت بركوب المكوك إلى القمر كلما كنت أحسن حالاً .

ـ « الحجر الصحى مجرد احتياط .. لسنا حتى متأكدين مما إذا كان مطلوبًا .. لكننا لانترك الأمور للصدفة . »

ـ « وما هى أعراض المرض ؟ هل لنا أن نساعدكم ؟ »

ـ « آسف يا (ديمترى) لكن التعليمات بالصمت صارمة .. شكرًا على العرض على كل حال ، لكننا قادرون على تولى الأمر .. »

ـ « غريب أن يرسلوا عالم فلك لدراسة وباء .. »

- « أنا لم أعد عالم فلك .. أنا خبير علمى ، ومعنى هذا أننى أعرف لاشىء عن كل شىء فى الكون ! »

- « إذن أنت تعرف ما هو TMA - 1 ؟ »

كاد (ميلر) يختنق من شرابه ، لكن (فلويد) كان من طينة أكثر صلابة ، وقد نظر للسوفييتى فى برود وأعلن أنه لم يسمع عن هذا الموضوع من قبل .. قال السوفييتى :

- « لا عليك .. أنت لن تخدعنى .. لكن لو وقعت فى شىء أكبر من قدراتك فلا تضيع الوقت قبل أن تصرخ طالبًا العون .. »

وهنا أعلن (ميلر) أن وقت الرحيل قد جاء .. برغم أنه بقيت عشرون دقيقة ، فإن (فلويد) نهض فى لهفة .. حتى إنه نسى أن الجاذبية هنا هى السدس ، وكاد يسقط لولا أن تشبث بالمنضدة ..

قال له (ميلر) وهما يتجهان إلى الجوازات :

- « أتمنى ألا يكون محقًا .. ألا نكون نتعامل مع شىء لا قبل لنا به .. »

« هذا هو ما جئت كى أقرره .. »

بعد خمس وأربعين دقيقة أقلعت المركبة (أريس) إلى القمر . من الغريب أن خفة الجاذبية تزيل الهموم معها .. كان هناك من قال إنك يمكن أن تخاف فى الفضاء لكنك بالتأكيد لا تشعر بالقلق .. إن هذا حقيقى إلى درجة غير عادية . كان تناول الطعام سهلاً لأن الأطباق مثبتة إلى المنضدة ، وكل الأطعمة لزجة كى لا تطير فى الهواء .. السلاطة مغمورة فى زيوت لزجة والصلصات كلها ثخينة .. الشىء الوحيد الممنوع هو الحساء الساخن وقطع الجاتوه ..

لم يكن السفر مملاً لأن الكثير من التقارير كانت بانتظاره ليقرأها ، فإذا تعب من ذلك ، كان بوسعه أن يطالع الصحف الإلكترونية كلها ، والتى تتغير صفحتها كلما مرت بضع ثوان كى تلاحق سيل الأحداث على الأرض . كان من الصعب أن يتخيل

مزيدًا من التطور أو التحسين على هذه الثورة فى الاتصالات ، لكنه كان يعرف أن المستقبل يعج بالاحتمالات ولن تلبث الأخبار الإلكترونية هذه أن تغدو عتيقة ، مثلما يبدو لنا (جوتنبرج) عتيقًا . وما لاحظه أيضًا هو أنه كلما تطورت الاتصالات ، كلما صارت الأخبار أكثر قتامة وسخفًا : اغتيالات .. قتل .. مجاعات .. ليس هذا مبررًا كافيًا لانتقال الأخبار عبر الأثير .. لكن هذا ضرورى .. إن جرائد المدينة الفاضلة (يوتوبيا) لابد أن تكون مملة إلى حد لا يطاق .

لما جاء موعد النوم أطفئت الأنوار ، وربط نفسه بالحزام كى لايطير فى الهواء وهو نائم .. كانت الأريكة غير مريحة لكن فى ظروف انعدام الوزن هذه ، يمكن أن تجد أى شىء مريحًا .

حين صحا من النوم كان القمر يملأ النافذة وقد بدأت إجراءات الهبوط .. كانت جبال القمر تختلف عن جبالنا ،

لكن تناقض الضوء والظلال عليها كان يمنحها جمالاً خاصًا بها .. إن علم الجمال الأرضى لايسرى هنا .

هبط المكوك فى الجانب المظلم من القمر .. ولم يكن مظلمًا تمامًا لأن الأرض الآن صارت تؤدى عمل قمر عملاق بالنسبة للقمر ، وكانت تغمر الوديان والجبال بضوء خافت مهيب .

عادت الجاذبية وبدأ المكوك يهبط فى ثبات وثقة ، تحاول النفاثات إبطاء هبوطه قليلاً . الشفرة الثنائية تؤدى عملها بكفاءة أسرع ألف مرة من عقول صانعيها .

لقد قام (فلويد) بالمغامرة التى ظل الناس يحلمون بها ألفى عام .. قام بها بمجرد رحلة روتينية عادية . لقد هبط على القمر .

* * *

١٠ـ قاعدة كلافيوس ..

(كلافيوس) التى يبلغ قطرها 150 ميلاً هى ثانى أكبر فوهة على وجه القمر الذى نراه ، وتقع فى وسط المرتفعات الجنوبية . كانت مركزًا لسقوط الشهب والنيازك ، لكنها عرفت السلام أخيرًا بعد بليون سنة .

الآن كان الإنسان ينشئ رأس جسره الأول على القمر ، وفى حالة الطوارئ تستطيع (كلافيوس) أن تعتمد بالكامل على نفسها . كانت نظامًا مغلقًا على نفسه كأنها نموذج للأرض ذاتها ، حيث يتم تدوير كل كيماويات الحياة . وكانت هناك إضاءة صناعية لليل مع ضوء الشمس ، مع أكسجين صناعى مما ساعد فى نماء مساحات شاسعة من الخضرة ، مهمتها الأساسية تخليق الأكسجين ، لكن الغذاء مهمتها الثانية .

كان الأحد عشر ألف رجل وستمائة امرأة الذين يشكلون طاقم القاعدة ، فنيين أو علماء مدربين على أعلى مستوى . فبرغم أن الحياة على القمر صارت سهلة خالية من الأخطار ، فإنها كانت تضغط على الأعصاب وتتطلب استبعاد أولئك الذين يعانون الكلوستروفوبيا (رهاب الأماكن المغلقة) . كانت الغرف معدة بعناية وتحوى كل أسباب الراحة ، بالإضافة إلى لمسة ديكور تجعلك بزر تستبدل بالجدار منظرًا أرضيًا بهيجًا .. وهو تبذير فى محله لكنه لم يكن مبررًا للمقيمين على الأرض ، والحقيقة هى أن كل فرد هنا قد كلف دافعى الضرائب مائة ألف دولار . لكن لم يكن هذا فنًا للفن بل كان فنًا للحفاظ على صحة الطاقم العقلية . بعد آلاف السنين تمكن العقل البشرى أخيرًا من أن يجد شيئًا كالفضاء له نفس متعة الحرب ، لكن للأسف لا تنعم كل الدول بهذه اللذة .

أما عن موضوع الجاذبية ، فهو يحتاج إلى وقت

طويل حتى تعتاده ، وحتى تكتسب عددًا من الانعكاسات الصحيحة . هنا عليك للمرة الأولى أن تفرق بين الكتلة والوزن .

وصلت المركبة التى تقل طاقم الترحيب ، وكان يقودها (رالف هالفورسون) .. مدير القطاع الجنوبى ، ومعه كان الدكتور (روى ميكيلس) وهو جيولوجى أشيب صغير الحجم عرفه (فلويد) من زياراته السابقة . وكان ترحيبهم به حارًا يوحى بأنهم كانوا يحتاجون إلى فرصة للتحرر من مخاوفهم . ولكن المجاملة اقتضت ألا يتحدث أحدهم الآن عن سبب الرحلة .

استقلوا حافلة فضائية صغيرة أوصلتهم إلى القاعدة (كلافيوس) . بعد رحلة سريعة عبر أنابيب وممرات وأنابيب تهوية ، وجد (فلويد) نفسه فى مبنى الإدارة . شعر براحة حين رأى الآلات الكاتبة والسكرتيرات والحاسبات الآلية والهواتف التى ترن . واقتاده (هالفورسون) إلى غرفة كتب على بابها (المدير) .

هنا اندفعت فتاة صغيرة إلى داخل المكتب وصاحت :

- « بابا .. أنت وعدتنى باصطحابى إلى سطح القمر لكنك لم تفعل .. »

نظر لها (فلويد) فى حيرة .. كانت فى الرابعة من عمرها ، وبدا له وجهها مألوفًا .. ثم تذكر .. فقال (هالفورسون) :

- « نعم .. هذه (دينا) .. أنت قابلتها فى زيارتك السابقة عندما كان عمرها سنة واحدة .. الأطفال ينمون هنا بسرعة مع الجاذبية المنخفضة .. ويشيخون أبطأ منا .. »

سألها (فويد) :

- « هل تحبين زيارة الأرض ؟ »

قالت فى اشمئزاز :

- « لا .. الجاذبية هناك قوية تجعل الجرى صعبًا .. والناس فى كل مكان .. »

قال (فلويد) لنفسه : إذن هذا هو أول جيل أطفال يولد فى الفضاء . فكرة مبهرة لكنها كذلك محزنة .

على الأقل سيكون هناك مفر دائم من الأرض المنهكة المريضة لأولئك الذين يعشقون الحرية . للرواد والمغامرين الذين لن يحملوا الفأس والبندقية هذه المرة بل يحملوا القوة الذرية والدفع البلازمى . لقد جاء الوقت كى تقول الأرض لأطفالها . مثل كل أم أخرى . وداعًا ..

جلس الرجلان فى المكتب ، وقدم المدير بعض الشراب الصناعى لضيفه ، ثم استرخى فى مقعده .

سأله (فلويد) :

ـ « كيف الأحوال هنا ؟ »

ـ « كل شىء على ما يرام .. لكن لدينا نوع من المشاكل الاجتماعية .. هذا التعتيم الإعلامى .. لدينا أفراد طاقم هنا لا يعرف أهلهم على الأرض شيئًا عنهم ، ويفترضون أن الوباء قد فتك بهم . »

قال (فلويد) :

ـ « أنا آسف .. لكن ما كان بوسعنا أن نجد غطاء أفضل لنا من هذه القصة .. لقد تكلمت مع السوفييتى (مويسفيتش) وقد صدق القصة ذاتها .. »

ـ « هذا يجعل الأمن سعيدًا .. »

ـ « ليس تمامًا .. فالرجل سمع عن TMA - 1 .. إن الإشاعات تتناثر برغم أننا لا نعرف تفاصيل الموضوع .. ليس قبل أن نعرف ما إذا كان الصينيون وراء هذا كله .. »

★ ★ ★

١١ ـ مفـارقـة ..

تم الاجتماع فى غرفة مستطيلة واسعة تتسع لمائة شخص بسهولة . كانت مزودة بأحدث وسائل التقديم البصريـة والسمعية ، لكن (فلويـد) انبهـر ببعض العلامات التى وضعت على الجدران فـى اهتمـام عظيم ، تقول : ممنوع السير على العشب .. ممنوع الوقوف .. إنذار الحريق .. إلى الشاطئ .. عبور ماشية ..

كـان هـذا ممـا يمس المشـاعر .. ففـى هـذا العالم البارد المعادى ما زال هؤلاء القوم يذكرون الأشياء التى تركوها خلفهم ، والتى لن يفتقدها أطفالهم أبدًا .

جلس (فلويد) على حيـن وقـف (هالفورسـون) يقدمه للجالسين :

ـ «سيداتى سادتى .. لاحاجة بى إلى أن أخبركم أنها مناسبة مهمة جدًا .. كلنا نعرف الدكتور (هيوود فلويد) من قبل .. وقبل أن نجتمع لديه ما يقوله لنا .. »

مشى (فلويد) إلى المنبر وسط تصفيق مهذب وابتسم وقال :

ـ « جئت أولاً كى أبلغكم تحيات رئيس الجمهوريـة على جهودكم التى سيعرفها العالم يومًا ما ، وأعـرف أن بعضكم قلق بشأن كل هذه السرية التى نحيط بها عملنا .. لكنى أذكركم أن هذا وضع خـاص .. وليس بوسعنا ارتكاب أخطاء .. هذه هى وصية الرئيس لكم .. »

وعاد لمقعده ، مـن ثـم نهض دكتـور (ميكيليس) وخبت الأضواء .

ظهرت على الشاشة صورة للقمر .. وفى المنتصف بقعة بيضاء تبدو بالضغط كأن أحدهم بعثر جوالاً من الدقيق على وجه القمر .

ـ « هـذا هو (تايكو) .. ترونه بوضوح تام كأنمـا يسيطر علـى نصف كـرة القمـر . كنـا نجرى مسحًا للقمر من قمر صنـاعى ، وكـانت هذه الصـورة التى بدأت كل مشكلاتنا .. »

ظهرت على الشاشة صورة مسح مغناطيسى منتظم

للقمر ، لكن فى ركن الشاشة كانت هناك حلقات متداخلة تدل ـ حتى بالنسبة لعين غير مدربة ـ على أن هناك شيئًا ما خطأ .. وفى أسفل الصورة ظهرت عبارة :

Tycho Magnetic Anomaly - 1 (TMA-1)

ـ « كنا متحيرين وخطر لنا أن هناك شهابًا يحوى صخورًا مغناطيسية ، لكن لم نر شيئًا كهذا .. وبالتالى كان علينا أن نلقى نظرة .. أرسلنا فريق حفر أول ، حفر التربة القمرية وهى مهمة ليست سهلة فى ثياب الفضاء ، ثم عجزت معداتهم عن الوصول لعمق أكبر ، من ثم أرسلنا فريقًا أكبر .. عاد لنا على عجلة بالنتائج التى تعرفونها .. »

ساد الصمت القاعة .. لم يكن هناك على الأرض أو القمر أكثر من مائة واحد يعرفون محتوى الصورة التالية .

كانت الصورة تمثل رجل فضاء فى ثياب حمراء براقة

يقف فى حفرة ويشير إلى جسم أسود ضخم ارتفاعه نحو عشر أقدام ، واتساعه خمس ، وقد ذكر (فلويد) بشاهد قبر عملاق . كان الجسم أسود تمامًا كأنما يمتص كل الضوء الساقط عليه ولاتفاصيل على سطحه .

ـ « هذا هو TMA-1 وهو يبدو حديثًا .. أليس كذلك ؟ لايدهشنى أن أعرف أن البعض توقعوا أنه يخص الصينيين بعد حملتهم الأخيرة ، لكننا استطعنا تحديد عمره جيولوجيًا .. والدكتور (فلويد) يوافقنى فى الرأى ، ولسوف نجازف بسمعتنا من أجل هذا .. هذا الجسم لا علاقة له بالصينيين .. بل لا علاقة له بالبشر .. إنه يعود إلى عهد لم يكن فيه بشر على الأرض .. إن عمره ثلاثة ملايين من الأعوام .. وما نراه هو أول دليل على وجود ذكاء يتجاوز الأرض .. »

* * *

١٢ ـ رحلة فى ضوء الأرض ..

ناظرًا من نافذة المعمل المتحرك ، كان بوسع (فلويد) أن يرى أمامه طريقًا محددًا حيث تركت المركبات العديدة أثرها على تربة القمر الهشة . فى الواقع كان من العسير أن يضل أحد طريقه طيلة المائتى ميل الفاصلة بين (كلافيوس) و TMA-1 ..

كانت النجوم البراقة فى السماء لاتختلف فى شىء عما تراه فى الليل فى (كولورادو) ، مع فارقين مهمين : الأول هو الأرض ذاتها .. منارة براقة فى الأفق الشمالى تسطع بضوء أقوى باثنتى عشرة مرة من القمر المكتمل . الثانى كان قمعًا مخروطيًا يشق السماء الشرقية ، ويوحى بنيران عظمى تختفى تحت حافة القمر ، كان هذا مجدًا شاحبًا لم تره عين بشر على الأرض إلا فى حالات الخسوف الكلى . كان

هذا هو الإكليل .. بشير الفجر القمرى .. معلنًا أنه بعد قليل ستغمر الشمس هذه المنطقة .

كان (فلويد) يفكر .. ثلاثة ملايين سنة ! كل التاريخ البشرى المكتوب بما فيه من إمبراطوريات وممالك وحروب يغطى فقط واحدًا على الألف من هذا الزمن ، لم يكن هناك حيوان ولا بشر وقتها حين دفن هذا اللغز نفسه فى أجمل فوهات القمر وأكثرها سطوعًا ، إن من دفنه هناك أراد أن يتحاشى زلازل القمر .. لقد أراد الأبدية ذاتها ..

حتى هذه اللحظة فشلت كل محاولات (ميكيليس) ورجاله للحصول على عينة من هذا الجسم البراق الأسود ، لكنهم كانوا يعرفون أنه لن يقاوم الليزر .. لاشىء يقاوم هذه الطاقة المركزة .. وقد ترك القرار لـ (فلويد) الذى كان يعرف أن استخدام أشعة إكس ومجسات السونار لابد أن تجرب جميعًا ، قبل اللجوء إلى طاقة الليزر القوية . إنها عادة بربرية أن تدمر

الشىء الذى لاتستطيع فهمه .. لكن البشر بالفعل برابرة بالنسبة للكائنات التى صنعت هذا الشىء ..

ومن أين جاءت هذه الكائنات ؟ من القمر ذاته ؟

لا .. هذا مستحيل . لو كانت هناك حياة على القمر ، فلابد أنها هلكت فى آخر حقبية لتشكيل الفوهات القمرية . حين كان سطح القمر أبيض ملتهبًا .

الأرض ؟ صعب وإن لم يكن مستحيلاً .. لو كانت هناك حضارة عظمى فى حقبة تاريخية ما ، واستطاع أفرادها الوصول للقمر ، فإننا كنا حتمًا سنجد أثرًا لهذه الحضارة ..

هكذا يبقى احتمالان : الكواكب أو النجوم ..

لكن هذا الاحتمال يظل بعيدًا ، لأن العلماء قد أثبتوا مرارًا أن الرحلة بين النجوم مستحيلة .. إن الرحلة إلى القمر قد تكون مؤثرة ، لكن أقرب نجم لنا هو على بعد أكثر بمائة مليون مرة ..

بدأت المركبة تنحدر بزاوية مرعبة ، وفكر (فلويد) فى أنهم يهبطون الآن إلى قلب الفوهة العملاقة (تايكو) .. ولم تكن هذه الفكرة مبهجة جدًا ..

الآن صار يرى الأضواء المميزة لمساكن العمال .. وقربها محطة إذاعة وآلات حفر عملاقة . برغم ضخامة المنظر بدت هذه المساكن موحشة جدًا هشة جدًا وسط كل عظمة الطبيعة من حولها .

لقد انحدرت المركبة عبر الفوهة العملاقة ، والآن يرى (فلويد) أمامه الـ TMA-1 ..

كانت الرؤية صعبة فى البداية ، وكان يرى ما بدا له كمستطيل قطع من ورقة كربون . كأنه بلا سمك على الأطلاق . لقد كان الجسم يعكس أقل القليل من الضوء ، لهذا كان يبدو للعين كأنه سلويت .

توقفت المركبة قرب الجسم الذى كان لونه الأسود كأنما صنع من الليل ذاته .. لاتوجد به علامات أو خدوش . وللحظة خطر له أن يكون هذا تكوينًا طبيعيًا

جيولوجيًا ثم استبعد هذا الاحتمال الذى استبعده العلماء هنا منذ زمن .

انبعثت الأضواء من عشر الكشافات المحيطة بالحافة .. وبالطبع لم تظهر الأشعة فى جو القمر المفرغ من الهواء ، لكن الجسم امتص ما سقط عليه من إشعاعات ..

فكر (فلويد) فى رعب : هذا صندوق بندورا ينتظر الإنسان الفضولى ..

فماذا فيه ؟

* * *

١٣ - الفجر البطىء ..

تحت قبة الضغط فى الموقع ، كان الزحام شديدًا بشكل غير مريح . وارتدى (فلويد) ثياب الفضاء التى صارت مريحة فى هذا العصر وتختلف كثيرًا عن دروع الفرسان الثقيلة التى كانت تلبس فى بداية عهد استكشاف الفضاء . وانفتح الباب المعادل للضغط فخرج إلى البيئة القمرية الترابية ، ومن الغريب أن البذلة كانت تشعره بالألفة نوعًا .. لعل ثقلها كان يمنحه سيطرة ما على نقص الجاذبية .

كان ليل القمر الذى استغرق أربعة عشر يومًا ، موشكًا على الانتهاء .. وبدا الإكليل فى الشرق كأنما هو قمر مزيف ، وفجأة تحولت السماء إلى شىء كالنيران بسبب أول إشعاعات شمسية .

كانت الفوهة مازالت فى الظل ، لكن ضوء الشمس



فجاة سمع صفيرًا مزعجًا من سماعتى الأذن فى بذلة الفضاء .. رفع يديه لا شعوريًا كى يسد أذنيه ..

أظهر داخلها جيدًا . وشعر (فلويد) وهو يقترب من الجسم الغريب بالعجز . هنا منذ ثلاثة ملايين سنة مر شىء ما وترك هذا الرمز المجهول ، والذى ربما لا يمكن معرفة كنهه أبدًا ، وعاد إلى النجوم .

قرر أن يجرى تجربة .. مشى ليقف ما بين أشعة الشمس والجسم العملاق .. وبحث عن ظله فلم يجد أثرًا له ، الآن هناك عشرة كيلووات من الحرارة تسقط على الجسم ، فلو كان بداخله شىء ، فلابد أنه ينضج ببطء .

فجأة سمع صفيرًا مزعجًا من سماعتى الأذن فى بذلة الفضاء .. رفع يديه لا شعوريًا كى يسد أذنيه ، ثم تذكر وبدأ يعبث بأزرار التحكم فى الصوت .. وبينما كان يحاول خفض الصوت دوت ثلاث صفارات أخرى .

نظر إلى الواقفين حوله فوجدهم فى ذهول ، وأدرك أنه ليس الوحيد الذى يمر بهذه الضوضاء . إن الجميع يسمع هذه الصرخات الإلكترونية الثاقبة . بعد ثلاثة ملايين عام ، هو ذا TMA - 1 يحيى الفجر القمرى .

وعلى بعد مائة مليون ميل وراء المريخ ، فى الفضاء الخالى حيث لا بشر ، سبحت السفينة (مونيتور 79) ببطء بين النجوم . طيلة ثلاثة أعوام ظلت تؤدى عملها بلا أخطاء ، والفضل للعلماء الأمريكيين الذين صمموها ، والبريطانيين الذين بنوها ، والفنيين الروسيين الذين يقودونها . كانت هوائياتها تسجل كل شىء من ضوضاء الفضاء ومجساتها الشعاعية تحلل الأشعة الكونية القادمة ، بينما تلسكوبات النيوترون تتلصص على النجوم التى لن يراها أحد أبدًا .

وفى كل يوم كانت حصيلة المعلومات التى تراكمت بصبر ، ترسل إلى الأرض فى نبضات لا تستغرق أكثر من خمس دقائق بسرعة الضوضاء يصل هذا النبض بعد ربع ساعة إلى وجهته . ولسوف يتم تحليل هذه النبضات وتخزن فى شرائط إلكترونية فى و(اشنجتون) و(موسكو) .

لم يكن أحد يعرف ما سوف يهم العلماء معرفته بعد خمسين أو مائة عام من الآن ، لهذا كانوا يحتفظون بكل شىء ، فى اعتزاز باعتبار هذه المعلومات كنوز البشرية الحقيقية الأثمن من الذهب المخبأ فى المصارف .

الآن قد لاحظت المركبة نشاطًا خافتًا لكنه ملحوظ فى مجموعتنا الشمسية .. نشاطًا ليس كالذى اعتادته من قبل ، وهكذا سجلت كل شىء وأرسلته للأرض كى تعرف معناه ..

نفس الشىء لاحظته (أوربيتر 15) التى تدور حول المريخ ، والمذنب الصناعى 5 الذى يجتاز الفضاء البارد بعد (بلوتو) الآن نحو مدار لن يبلغه قبل ألف عام من الآن .

وعلى الأرض لم تتلق الحاسبات الآلية قط اتصالات كهذه من أربعة مجسات فضائية مختلفة يدور كل منها فى مكان من الكون على بعد ملايين الأميال .

وإذ درس الفنيون هذا فى (جودار) على الأرض بدا واضحًا أن شيئًا ما عبر المجموعة الأرضية .. بدت الصورة واضحة كأنما هى دخان طائرة عبرت السماء الصافية ، أو آثار أقدام على ثلج بكر .

نمط غريب من الطاقة قد انبعث من سطح القمر وهو الآن يتجه نحو النجوم .

* * *

III - بين الكواكب

١٤ - ديسكفرى ..

لم تكن السفينة قد ابتعدت عن الأرض أكثر من ثلاثين يومًا ، إلا أن رائد الفضاء (ديفيد باومان) كان يصعب عليه أحيانًا أن يصدق أنه عرف على الإطلاق أى وجود آخر غير عالم (ديسكفرى) الصغير المغلق .

كل تدريباته وكل رحلاته السابقة إلى المريخ والقمر بدت كأنما تنتمى لرجل آخر ..

كان (فرانك بول) يقره على هذا ، وأحيانًا كان يتحسر مازحًا على أن أقرب طبيب نفسانى هو على بعد مائة مليون ميل .

كان المشروع معدًا منذ خمس سنوات ، باسم (المشترى) ، ولكن فجأة تغير كل شىء . ستذهب الرحلة فعلا إلى المشترى لكن لن تتوقف هناك . بل ستستخدم جاذبية الكوكب لتدفعها أكثر نحو الحلقات المجيدة لكوكب (زحل) ، ولن ترجع أبدًا .

بالنسبة لطاقمها لم تكن هناك نية الانتحار ، فهم سيعودون بعد سبعة أعوام يقضون خمسة منها فى السبات ، حتى تنقذهم (ديسكفرى ـ 2) التى لم تبن بعد . وكانت كلمة (إنقاذ) غير مستحبة لأنها توحى بنوع ما من فشل التخطيط ، لذا كانوا يستعملون لفظة (استعادة) . ولسوف يتم إرسال النتائج أولاً فأولاً للأرض ، حتى لو لم يعد الرواد سوف تبقى اكتشافاتهم .

كان (باومان) يحسد العلماء الثلاثة النائمين الذين لادور لهم إلا فى مدار (زحل) ، فهم تحرروا من الهم والملل والمسئولية . يعنى بهم الحاسب الآلى ، فلا ترى منهم إلا مقياس التنفس ورسم القلب على الشاشة ورسم موجات المخ التى صارت الآن هادئة بلا نبضات أو خفقات تميز نشاط العقل البشرى المحموم .

حين أفاق من السبات بدوره لم يكن واثقًا .. هل حقًا مرت أعوام أم لا ؟ هل انتهت المهمة ؟ هل السفينة (ديسكفرى - 2) هنا لتعيده للوطن ؟ هل حقًا لم يخسر هذه الأعوام التى نامها ؟ كان من

المستحيل التفكير فى شىء ، وشعر بهواء دافئ يذيب الصقيع الذى كان فيه فى السبات ..

جاءه صوت ودود لكنه ـ كما يعرف ـ صوت رقمى :

ـ « لقد عدت للعمل يا (ديف) .. لا تنهض أو تحاول أية حركات عنيفة .. لاتحاول الكلام .. »

كان الآن يفهم معنى هذا .. لقد انتهت المهمة وجاءت سفينة العودة ، وتم تشغيل نظام الإحياء الآلى ..

لكنه يشعر بالجوع . ولابد أن الكمبيوتر قد شعر بهذا ..

ـ « هناك زر جوار يدك اليمنى يا (ديف) ، فلو أردت أن تأكل أرجو أن تضغط عليه .. »

ضغط الزر وبعد دقائق هبطت ذراع معدنية وشعر بحلمة بلاستيكية توضع فى فمه .. راح يمتص فشعر بسائل حلو المذاق دافئ ينساب فى حلقه معيدًا إليه قواه .

شعر بأنه يستطيع الآن أن يحرك ذراعيه ، وأن المشى لم يعد حلمًا مستحيلاً ، ترى ماذا حدث فى الأشهر التى تلت رحيلهم عن الأرض ؟ هل فقد الذاكرة ؟ لكن هذا سرّه .. لو كان يذكر كلمة (فقد الذاكرة) فلابد أن عقله مازال يعمل ..

جاءه صوت آدمى من مكبر الصوت يقول :

ـ « لاتقلق يا (ديف) .. أنا (فرانك بول) .. أراقب نبضات قلبك وتنفسك بعناية وكل شىء على مايرام .. الآن نفتح الباب ونخرجك .. »

ثم دخلت مجموعة من الظلال الغرفة .. هنا فقط عادت له ذاكرته واستعاد كل شىء .

لن يرى سماء المشترى التى تبعد عنه عامًا ..

إنه مازال فى مركز التدريب فى (هوستون) .

* * *

١٥ ـ هال ..

كان هناك على (ديسكفرى) تلسكوب واحد مصوب إلى الأرض ، وكان من الصعب أن ترى معالم الأرض الجغرافية بوضوح من هذه المسافة .. لكن (ديف) لم يندم على مفاتن الأرض التى ابتعد عنها .. لقد رآها جميعًا وعمره بعد خمسة وثلاثون عامًا . ولسوف يراها من جديد يوم يعود شهيرًا ثريًا .

كان الفرد السادس من الطاقم لايبالى بهذه الأشياء ، لأنه لم يكن بشريًا .. كان هو الكمبيوتر HAL 9000 بالغ التعقيد(*) ، والذى هو العقل والجهاز العصبى لهذه المركبة . كان (هال) قطعة فنية من ثورة الكمبيوتر الثالثة ، والتى تحدث كل عشرين عامًا . أول الحاسبات تم بناؤه عام 1940 حين ظهرت حاسبات غبية خرقاء

(*) فى لمسة خبيثة اختار المؤلف اسم HAL للكمبيوتر باختيار الحروف السابقة فى الترتيب الأبجدى لـ IBM ولسوف نعرف من القصة أن استعمال حروف IBM كان يعرضه للملاحقة القانونية .

مثل ENIAC . ثم فى الستينات تقدمت الإلكترونيات وبدا أن إمكانيات الذكاء الصناعى ليست مستحيلة .

عام 1980 برهن (مينسكى) و(جود) على أن شبكة الاتصال العصبى يمكن توليدها أوتوماتيكيًا . ونمت العقول الصناعية بطريقة مماثلة للعقول البشرية . إن التفاصيل الحقيقية لن تُعرف أبدًا والمهم أن المحاولة نجحت والنتيجة النهائية هى ذكاء صناعى يمكنه أن يحاكى أكثر نشاطات العقل البشرى بسرعة أكثر . كان هذا مكلفًا جدًا ، وبالتالى لم تكن هناك إلا وحدات قليلة من (هال) .

لقد تدرب (هال) على المهمة جيدًا مثل رفاقه البشريين . وبالإضافة لسرعته لم يكن ينام أو يتعب . كان عليه متابعة الأكسجين والحرارة وكل العوامل التى تعتمد عليها حياة الحمولة البشرية الهشة . بالإضافة لهذا كان (هال) قادرًا على تولى القيادة ، فى حالة الطوارئ لو لم يرد أحد على إشاراته سيحاول إيقاظ النيام ، فلو فشل سيطلب الأرض طالبًا التعليمات .

لو لم ترد الأرض سيتخذ الإجراءات التى يجدها ضرورية لإكمال الرحلة ، التى يعرف هو فقط هدفها . كان (بول) و(باومان) يتهكمان دومًا على كونهما حارسين لا أكثر على سفينة تعرف كيف تقود نفسها . والواقع انهما كانا سيذهلان لو عرفا مدى دقة هذه المزحة .

★ ★ ★

كان (بول) و(باومان) يعرفان ما عليهما عمله يومًا فيومًا ، وكانا يتناوبان السهر ولا ينامان فى الوقت نفسه أبدًا ، وبرغم أن (بول) كان هو القائد رسميًا فإن أى مراقب من الخارج كان يستحيل أن يعرف الحقيقة ، فالرجلان يتبادلان الرتب والمهام ويتولى كل منهما القيادة اثنتى عشرة ساعة يوميًا ، بهذا كان كل منهما يحتفظ بيقظته ونشاطه العقلى ، بالإضافة إلى أن هذا يقلل الاحتكاك أو الشجار .

كان (بومان) يبدأ يومه فى السادسة بتوقيت (إفيمريس) الكونى الذى يستعمله رواد الفضاء ، فلو تأخر كان (هال) يوقظه بالكثير من الأصوات . ثم يدخل الحمام ، ويمارس تمريناته الرياضية الثابتة ، ثم

يتناول الإفطار وهو يطالع الأخبار الإلكترونية التى لم تكن تعنيه فيما سبق ، أما الآن فهو يلتهم أصغر معلومة التهامًا ، ثم يجلس إلى لوحة القيادة يطالع الأرقام ويتأكد من أنه لا يوجد خطأ ما .. ثم فى الساعة 1600 يتفقد آلات السفينة شديدة التعقيد ، ويصعد ليطالع بعض كتب المكتبة الإليكترونية التى كان يحبها بشدة خاصة الأوديسة التى كانت أقرب الكتب لقلبه ، ربما يلعب الشطرنج أو الطاولة مع (هال) .. لكن لو ترك (هال) وشأنه لربح كل الألعاب ، لهذا بُرمج على أن يربح النصف فقط فى الساعة 2000 يتناول العشاء مع (بول) ويتصل بالأرض . كان غير متزوج .. فمن الصعب أن ترسل رب أسرة إلى رحلة كهذه .. لهذا كان يتصل بفتيات يعرفهن على الأرض ، وكان يعرف أن مئات الآذان تسمع ما يقول ، لذا كان يتحفظ .. ومع الوقت بدأت حرارة المكالمات تخبو .. وتلك هى الضريبة التى يجب أن يدفعها رائد الفضاء كما كان يدفعها البحار من قبل .

وكان أعظم أمل لدى طاقم (ديسكفرى) هو ألا يحدث شىء يفسد هذا الهدوء الذى تمضى به الرحلة .

١٦ ـ عبر الكويكبات ..

مضت (ديسكفرى) أسبوعًا بعد أسبوع فى طريقها كأنها عربة ترام تمشى فى مدارها المحدد سلفًا . فلم تتطلب أقل لمسة لمفاتيح تحكمها . لم تكن هناك شواطئ ترتطم بها ولا خطر من الاصطدام بمركبة أخرى . لكن لم يكن الفضاء خاليًا ، وكانت هناك كويكبات صغيرة أقرب إلى جلاميد صخر عائمة فى الأثير ، وكان ارتطام الواحد منها بسرعة عشرة آلاف ميل فى الساعة بالسفينة يعنى نهايتها ، لكن لم يكن من شىء يمكن عمله ، واحتمال الارتطام أصلاً كان شبه معدوم .

مثلاً كان اللقاء الأول بينهم وهذه الكويكبات مع الكويكب الذى يطلق عليه اسم 7794 وهو مجرد صخرة عملاقة ، رآها العلماء يومًا ونسوها ، لكن الحاسبات

العملاقة على الأرض لم تنسها ، ولم ينسها (هال) ..
وقد ذكر (باومان) بذلك ، وأظهر له على الشاشة
ذلك الجسم مع إحداثياته.. كان يتحرك بطء على بعد
نصف مليون ميل ، لكن هذه المسافة سوف تتحول
إلى لمسة يد بعد قليل .

التقطت الكاميرات آلاف الصور للجسم الذى يعبر
الفضاء بسرعة ثلاثين ميلاً فى الثانية ، والذى يدور
حول نفسه كل دقيقتين .. شعر (باومان) و(بول)
كأنهما بحاران يريان جزيرة لا يحق لهما النزول
إليها . درساه بالرادار بل وكان الوقت يسمح بإرسال
مجس . كان هذا المجس هو قطعة معدنية أطلقاها
من السفينة وتم حساب اتجاهها بحيث تلاقى الكويكب
وتنغرس فيه .

انطلقت القذيفة وارتطمت بالكويكب فتوهجت .. إذ
تحولت الطاقة التى تحركها إلى حرارة ، وعلى الأرض
سيقوم العلماء بتحليل تركيب الذرات المحيطة بالقذيفة

ليعرفوا للمرة الأولى التركيب الكيماوى الدقيق لأحد
الكويكبات .

عادا وحيدين من جديد وكذا سيبقيان حتى يريا
أول الأقمار الخارجية للمشترى بعد ثلاثة أشهر من
الآن .

* * *

الآن كان المشترى يملأ السماء .. كأنه نصف القمر
الذى نراه على الأرض ، مع أحزمة السحب المحيطة
به ظاهرة بوضوح . وأقماره المسماة (أيو)
و(أوروبا) و(جانيميد) و(كاليستو) كبيرة الحجم
إلى حد أنها كانت تعتبر كواكب مستقلة فى أى عالم
آخر ، لكنها هنا مجرد أقمار تابعة .

وقد راح (باومان) يرمقه فى انبهار مذكرًا نفسه
بأنه يفوق حجم الأرض إحدى عشرة مرة . وراح
جهاز اللاسلكى يلتقط زئير المشترى .. لقد عرف
العلماء من الخمسينات أن الكوكب يرسل أصواتًا

عالية طيلة الوقت ، ومن حين لآخر يقطع هذا الزئير صفير قصير كأنه صراخ طيور بلهاء .

حتى بسرعة مائة ميل فى الساعة ، سوف تحتاج (ديسكفرى) إلى أسبوعين لتعبر حزام الأقمار المحيطة بالمشترى .. والتى يتزايد عددها كل عام حتى بلغ العدد ستة وثلاثين قمرًا فى العام الماضى . كانت هى جوائز حرب الجاذبية بين المشترى والقمر .. الكويكبات التى نجح المشترى فى أن يستولى عليها لنفسه ، والتى سيفقدها من جديد بعد مليون سنة .. فقط الأقمار الملاصقة له هى التى ستظل من حقه للأبد .

لقد ظفر المشترى بفريسة جديدة هى السفينة الآن ، وهى تتجه داخل مداره .. ترسل إشاراتها للأرض التى صارت بعيدة جدًا ، إلى حد أنه مع سرعة الضوء فإن الإشارات تحتاج إلى ربع ساعة كى تصل .

كانوا الآن يمرون جوار القمر (أوروبا) الذى بدا ككرة ثلج عملاقة ، والذى لم يُر على الأرض إلا كرأس دبوس

بوساطة أقوى التلسكوبات . راحوا يجمعون عنه سيلاً من المعلومات سوف يتم تحليلها فيما بعد . كان يبدو مغطى بالثلج لكن الأرجح أنها بلورات من الماء والأمونيا فشل المشترى فى أن يظفر بها لجاذبيته . ومن الغريب أنه قمر محاط بغلاف جوى خفيف كما عرف العلماء من قديم .

كان الدنو من المشترى سريعًا إلى حد لا يوصف ، وكان (هال) عاكفًا على دراسة المدار ، لكن كان عسيرًا على الرجلين أن يصدقا أنهما لن يرتطما بالكوكب المرعب .. الذى يدخلان جاذبيته بسرعة لاتصدق . هنا جاء وقت التخلص من مجسات الطقس .. تلك المجسات التى يرجى أن تظل سالمة لترسل معلومات عن نطاق الكوكب الجوى ، وكانا جسمين أقرب إلى قنبلتين مغلفتين بواق حرارى .

الآن نجح (هال) فى تفادى غلاف الكوكب الجوى ، وصار المشترى يملأ السماء كلها . كان عملاقًا إلى حد أن البصر والعقل لا يقدران على استيعابه .

قال (هال) :

ـ « إشارات الأرض تخفت .. نحن ندخل أول منطقة تشويش .. »

كانا يعرفان هذا ويتوقعانه طبعًا ، لكن انقطاع الاتصال بالأرض للمرة الأولى ملأهما بالوحشة . كان أمامهما ساعة حتى يغادرا نطاق التشويش وهى أطول ساعة فى حياتهما على الإطلاق .

كان الخطأ معناه كارثة .. لأن هذه أول رحلة من نوعها إلى هذه المسافة ، وبهذه السرعة ، ومع جاذبية كوكب بهذه القوة .. لقد ذهبا فى رحلات فضائية كثيرة لكن هذه الرحلة كانت غير مسبوقة .

أخيرًا اتخذت (ديسكفرى) مدارها حول الكوكب واستطاعا أن يريا الشمس من جديد ..

وتصافح الرجلان .. يمكن القول إن أولى مراحل الرحلة قد تمت بنجاح .

★ ★ ★

أما عن المجسين اللذين أطلقاهما فى الفضاء ، فهناك واحد لم يسمعوا عنه ثانية ، لأنه من الواضح أنه دخل منحنى شديد الانحدار وأحرق نفسه فى غلاف المشترى الجوى . أما الثانى فقد دخل المجال الجوى بنجاح عند الجانب المعاكس للشمس من الكوكب . وعلى (ديسكفرى) التى تبعد ربع مليون ميل ، بدأت الأخبار الأولى عن المشترى ترد تباعًا . كانت هناك مئات التفاصيل عن حالة الجو والضغط لايمكن أن يفهمها إلا الخبراء على الأرض ، لكن كانت هناك رسالة واحدة يفهمها الجميع ، هى الصورة التلفزيونية للمشترى .

فى البداية كان الضباب كثيفًا وكان من الصعب أن ترى لبعد مائة متر ، حتى بدا أن المهمة فاشلة تمامًا . ثم تلاشى الضباب .. وكان المشهد غريبًا جدًا بالنسبة لعيون اعتادت ألوان الأرض .. كان هناك بحر بلانهاية من اللون الذهبى بلاحركة .. وكان مستوى البحر عاليًا بحيث لايمكن أن يكون محيطًا

فعلاً .. إنه طبقة أخرى من السحب على الأرجح . ثم استطاعا أن يريا جبلاً عاليًا يشبه القمع تحيط به سحب صغيرة مستديرة .. كل المشهد كان عجيبًا غير طبيعى .. إن كانت كلمة (طبيعى) تصلح لوصف هذه البانوراما العجيبة . فجأة اهتزت الصورة ثم خبت .. إن هذا المسافر الأرضى الأول لم يستطع مواصلة المهمة وهوى تحت ثقل الطبقات الجوية من فوقه .

ربما أعطى فى حياته القصيرة لمحة هى واحد على مليون من المشترى ، ثم زالت صورته . لو كانت هناك حياة تحت هذا الضباب فكم من الوقت تحتاج للعثور عليها ، وكم قرنًا سيمر إلى أن يتبع الإنسان ذلك الرائد الأول الذى انتهى أمره ؟ وفى أى نوع من السفن ؟

لكن الطاقم لم يبال كثيرًا بهذه التفاصيل ، لأن مهمتهم كانت ما زالت بعيدة على بعد آلاف الأميال فى الفضاء الخالى ..

* * *

IV ـ الهاوية ..

١٧ ـ حفل عيد الميلاد ..

دوت النغمات المألوفة لأغنية (عيد ميلاد سعيد) عبر سبعة ملايين ميل من الفضاء بسرعة الضوء ، وماتت على شاشات غرفة التحكم . وتكلم مستر (بول) الأب قائلاً :

ـ «حسن يا (فرانك) .. لا أجد ما أقوله هذه اللحظة إلا أن أفكارنا معك .. ونتمنى لك أسعد عيد ميلاد ..»

وتدخلت الأم دامعة :

ـ «خذ الحذر يا عزيزى .. بارك الله فيك ..»

وتلاشت الصورة ، وخطر لـ (بول) كم أنه من الغريب أن هذا كله حدث منذ ساعة ، وأن الأسرة تفرقت وانصرفت .. كان هذا يهدم بديهية يعتقدها الإنسان

هى أنه يستطيع الكلام فوريًا مع من يريد ، لكن الآن قد دخل بعدًا جديدًا ، ومطت كل الروابط العاطفية إلى حد أنها أوشكت على التمزق .

هنا جاء صوت (هال) :

ـ « آسف لمقاطعة الحفل لكن لدى مشكلة فى الاتصال بالأرض .. المشكلة فى وحدة 35 - AE وتقارير التنبؤ بالخطأ لدى تقول إنها قد تتوقف تمامًا خلال 72 ساعة .. »

ـ « حسن .. فلنر ذلك .. »

وطلب الرجلان نسخة مطبوعة من التقارير لأنه مهما تقدمت الإلكترونيات تظل المعلومة المكتوبة أقرب للفهم . ودرس (باومان) التقارير بعض الوقت ثم صفّر ..

ـ « معنى هذا أن علينا الخروج من السفينة لاستبدال القطعة بواحدة أخرى .. »

قال (هال) :

ـ « أنا آسف .. حسبت أنكما تعرفان أن القطعة 35 - AE مثبتة إلى الهوائى .. »

قال (بول) :

ـ « سأقوم بهذا العمل .. سيفيدنى تغيير المناظر وليس فى هذا إساءة لك .. »

فقد كان هو المسئول عن النشاطات خارج السفينة التى يختصرونها بلفظ EVA ..

ـ « فلنطلب المراقبة ونسألهم الإذن .. »

وبعد إرسال الرسالة كان عليهما الانتظار ساعتين حتى يأتى الرد ..

ـ « إكس راى دلتا 1 .. هنا التحكم فى المهمة .. نحن نقدر 1-2-0-3 .. وسوف نقدم النصح .. روجر .. خطتكم للذهاب EVA واستبدال ألفا إيكو 3 - 5 قبل الفشل المحتمل .. تقديرنا .. ألفا .. 2 .. 3 »

أما وقد انتهى الكلام بـ (الإنجليزية التقنية) التى كانوا يطلقون ساخرين عليها Technish فقد عاد الكلام للإنجليزية العادية :

ـ « آسفون على المشاكل يا شباب ، لكن الإعلام يرغب فى أن تشرحوا ما يحدث .. بضع كلمات لا أكثر لأن الجميع قلق هنا .. يمكننا القيام بالمهمة ، لكنها ستكون أكثر إقناعًا لو جاءت منكم أنتم .. »

وابتسم (باومان) لهذا الطلب .. هناك لحظات تبدو فيها الأرض عديمة الإحساس بالمسئولية . على كل حال كان الاهتمام الإعلامى بهم قد فتر كثيرًا .. بعدما كان يومهم مزدحمًا بالمقابلات والأحاديث ..

وكان (بول) قد صحا من النوم فجلس الرجلان يعدان بيانًا للصحافة يقول إن كل شىء على ما يرام .. وأرسلاه إلى الأرض ..

★ ★ ★

كانت كبسولات العمل فى الفضاء مزودة بذراعين أحدهما للأعمال الخشنة ، والآخر للأعمال الدقيقة . بينما يجلس القائد خلف شاشة تريه عمل الذراعين ، وكانت تطلق على هذه الكبسولات أسماء نسائية

بسبب أن لكل منها طبيعة متقلبة لا يمكن التنبؤ بها .. هنا فى (ديسكفرى) كانت الكبسولات تحمل أسماء (آنا) و(كلارا) و(بيتى) ..

ارتدى (بول) ثياب الفضاء آخر خط دفاع لديه ، وتأكد من الأكسجين والوقود والكهرباء . كانت هذه الكبسولة هى (بيتى) .. وأصدر التعليمات لـ (هال) كى يبدأ ضخ الهواء من غرفة الضغط .. وسمع (بول) صوت المعدن الرقيق يقعقع ويتثنى ..

ببطء انفتحت جدران السفينة وشعر (بول) بالكبسولة تهتز بينما آخر بقايا الهواء تخرج للفضاء .. ثم صارت الكبسولة معلقة بقضيب خارج السفينة .. وكان يرى بوضوح محيط المشترى الذهبى ..

تحررت الكبسولة فتحولت إلى سفينة مستقلة تبحث عن مدارها الخاص .. لم يعد هناك ما يربطها إلى (ديسكفرى) ..

دار بالكبسولة ذات المحركات النفاثة حول السفينة .

ولمح جزءًا من جسم السفينة وقد آذته ذرات الغبار التى كانت تضربه طيلة الرحلة ، فبدا كأنما حدث انفجار من داخل السفينة فى هذا الجزء .. فى هذه السرعات الكونية يصير علم الميكانيكا الذى نعرفه غريبًا .. لا شىء يتصرف كما عهدناه ..

رش هذا الجزء بمادة لاصقة تزيد من صلابة المعدن وتحمله .. ثم عاود الحركة ببطء حول السفينة .. كان حريصًا على ألا يزيد السرعة لأنه يجازف بالارتطام بالسفينة الأم من هذه المسافة القريبة ..

أخيرًا وصل إلى الهوائى الذى كان يواجه الشمس .. كان فى ظلام دامس مما دعاه إلى أن يضىء الكشافات .. عند قاعدة الهوائى وجد أربعة مسامير تثبت القطعة ..

كان من الواضح أنه لن يستطيع فكها وهو فى الكبسولة ، لأنه يجازف بالاحتكاك بالسفينة .. ثم إن محركات بيتى قد تحرق المرآة الرقيقة العاكسة

لأمواج الراديو . عليه أن يترك (بيتى) ويخرج منها ببذلة الفضاء .. سيكون فك المسامير أسهل بيديه ..

أبلغ خطته لـ (باومان) الذى راجعها بدقة .. كان عملاً سهلاً ، لكن فى الفضاء الخارجى لايوجد شىء متوقع .. ولا يوجد شىء اسمه (هفوة بسيطة) ..

قبل مغادرة الكبسولة نقل التحكم إلى (هال) ، ثم أخرج الهواء .. تلاشى الهواء فى الفضاء ، فتكونت طبقة بلورية ثلجية على بذلته .. كان يعرف أن الكبسولة ستبقى فى مكانها ولسوف يظل متصلاً بها بحبل نجاة ، لكنه كان يخشى أن يتم مهمته ثم يبحث عنها فلا يجدها .. هذه مسئولية (هال) من الآن فصاعدًا .

ثم إنه بدأ يعالج الهوائى بيديه .. وبالأدوات المثبتة إلى حزامه .. كانت المشكلة هى أن ظله يغمر الوحدة لذا أمر (هال) بأن يحرك الضوء إلى اليسار قليلاً . وغمغم فى سره متهكمًا : « العبث فى الجهاز عن طريق شخص غير متخصص يلغى فترة الضمان » وبدأ يفك المسامير .. لقد تنبأ أحد الفنيين يومًا بأن



ثم إنه بدأ يعالج الهوائى بيديه .. وبالأدوات المثبتة إلى حزامه ..

الأرض ستكون لها حلقة تحيط بها مثل (زحل) بسبب كل المسامير والصواميل المتساقطة من سفن الفضاء .

ـ « هال .. أنا سأفصل الوحدة الآن .. اقطع كل الاتصالات بالهوائى .. »

ـ « تم قطع الاتصال .. »

وسرعان ما تم تركيب قطعة الغيار . ثم أمر (هال) بأن يعيد الكهرباء ويجرى اختبارات الخطأ . كان من العسير دومًا فهم كيف تفشل إلكترونيات الحالة الصلبة ، لكن هذا كان يحدث .

بعد عشر ثوان جاء صوت (هال) :

ـ « الوحدة تعمل بكفاءة .. »

فى هذا الوقت الوجيز كان قد أجرى من الاختبارات ما يقوم به جيش من الخبراء .

وبعد ربع ساعة عاد (بول) إلى الكبسولة مطمئنًا إلى أن هذا عمل لن ينجز مرة أخرى .. وكان فى هذا الصدد مخطئًا بشكل محزن .



١٨ـ التشخيص ..

قال (بول) :

ـ « هل تريد القول إننى قمت بهذا العمل كله بلا طائل ؟ »

أجاب (باومان) :

ـ « : يبدو هذا .. هذه الوحدة تعمل بكفاءة .. لا يوجد من سبب للتنبؤ بالخطأ .. »

كانت الوحدة التالفة على المنضدة تحت عدسة مكبرة كبيرة .. وكانت مربوطة بجهاز كمبيوتر يجرى عليها مئات الاختبارات ليظهر مكان العطل على شاشته . وكانت نتيجة الفحص أن الوحدة بحالة طيبة .

ـ « وماذا تستنتج من هذا ؟ »

ـ « الخطأ من (هال) وليس الوحدة ..

وعلى كل حال كانا قد استبدلا الوحدة ، وسيكون القلق من نصيب شخص آخر حين يعودان إلى الأرض .. لكن القلق عاد مع الاتصال الثانى من الأرض :

ـ « لا يوجد احتمال إلا أن الكمبيوتر الخاص بكم ارتكب خطأ .. لا يوجد سبب للقلق ، لكننا نرى أن تراقبوا أداءه بعناية . أكرر .. لا داعى للقلق .. أسوأ ما يمكن حدوثه هو أن نفصل الكمبيوتر لإعادة دراسة البرنامج . انتهى الاتصال »

انتظر (بول) أن يرد (هال) لكن الكمبيوتر لم يحاول أن يدفع الاتهامات عن نفسه ..

جلس (باومان) مع (بول) يناقشان رسالة الأرض .. كانا يعرفان أن (هال) يسمع كل كلمة ويفهمها ، لكنهما كانا مضطرين للكلام عنه بلياقة .. إن (هال) زميل وليس من المستحب مضايقته ..

عليهما الانتظار حتى التقرير التالى من مراقبة المهمة .. وراحا يتساءلان إن كان (هال) سيفتح الموضوع بنفسه أم لا .. لقد تغير الجو فى السفينة .. ثمة جو من، التوتر وأنه ـ للمرة الأولى ـ قد يكون هناك خطأ ما ..

لم تعد (ديسكفرى) سفينة سعيدة ..

★ ★ ★

فى الآونة الأخيرة ، صار من السهل معرفة متى سيبدأ (هال) الكلام من تلقاء نفسه .. فقبل أن يبدأ فى إبداء آرائه الخاصة كنت تسمع نحنحة إلكترونية قصيرة .. من الغريب أنه اكتسب هذه العادة فى الأسابيع الماضية ثم إنها صارت مزعجة بالفعل . لكنها كانت مفيدة .. توجه المستمعين إلى أنه سيقول شيئًا لا يتوقعونه .

كان (بول) نائمًا و(باومان) يقرأ فى غرفة التحكم ، حين أعلن (هال) :

ـ « احمم .. (ديف) .. عندى تقرير لك . »

ـ « ماذا لديك ؟ »

ـ « لدينا مشكلة أخرى مع الوحدة AE-35 .. أتوقع تلفًا خلال 72 ساعة .. »

وضع (باومان) الكتاب الذى فى يده ونظر إلى العدسة الكبيرة التى تتوسط مفاتيح التحكم .. كانت هذه مجرد عادة نفسية لأن (هال) فى الواقع لم يكن هناك ..

ـ « لا اصدق هذا يا (هال) .. لايمكن أن تتلف وحدتان فى يوم واحد .. »

ـ «أنا أيضًا مندهش يا (ديف) ، لكن هذه الحقيقة ..»

ـ « لكنك قلت لنا الشىء ذاته عن الوحدة السابقة ..»

ـ « أنا متأكد مما أقول .. لو لم تكن الوحدة تالفة فلربما كان النظام الفرعى كله .. أو ربما كان نظامكم فى التشخيص »

ـ « وما هو سبب التلف ؟ »

ـ « ليس من مهامى التشخيص .. »

ـ « كلنا نرتكب الأخطاء يا (هال) .. »

ـ « ارتكاب الأخطاء أمر أعجز عنه يا (ديف) .. »

بعد قليل جاءت صورة مدير المشروع ذاته على الشاشات ، وكان هذا نادرًا .. أدرك رائدا الفضاء على الفور أن هذا معناه المتاعب ..

قال المدير :

ـ « بالفعل بعد بلاغكم الثانى ، قمنا بإجرا تحليل للوضع ومن الواضح أن العيب ليس فى الوحدة لكنه فى (هال) .. هذا يعنى أن علينا مراجعة برنامجه الذى يحوى خطأ ما .. سنقوم بفصله عن التحكم ، وتقوم حاسبات الأرض بتولى العملية ابتداء من الساعة 1200 .. أعرف أن تأخر وصول الموجات قد يسبب ربكة ، لكنكم فى مرحلة لا يؤثر فيها بطء التحكم .. »

هنا دوى صوت (هال) :

ـ « الحالة صفراء .. الحالة صفراء ! »

نظر (باومان) فى عدم فهم متسائلاً ، فجاء صوت (هال) :

ـ « الوحدة AE-35 قد توقفت تمامًا كما توقعت .. »

هنا فقط وجد الرجلان أن صورة الأرض لم تعد ظاهرة على الشاشة .. لقد تحرك الهوائى فى اتجاه آخر .. أى أن الاتصال بالأرض انقطع . هوى (بول) بقبضته على منضدة التحكم ليخرس صوت الإنذار .. ووقف الرجلان يتبادلان النظرات القلقة فى الصمت الذى خيم على المكان .

قال (باومان) :

ـ « إذن كان (هال) على حق طيلة الوقت .. »

هنا عاد صوت (هال) :

ـ « ترى هل استعدتم ثقتكم بى ؟ »

ـ « بالتأكيد يا (هال) .. »

كان الرجلان يخشيان تركيب الوحدة الاحتياطية الثالثة .. قبل أن يعرفا ما هو الخطأ بالضبط ، وإلا احترقت بدورها .. هذا مفهوم حتى على مستوى

البيت .. أنت لا تغير المنصهر المحترق قبل أن تفهم ما هو الخطأ فى الكهرباء ..

ومن جديد أعاد (بول) فحص (بيتى) ثم أمر (هال) بأن يفتح لها الباب ..

كان كل شىء يماثل ما رآه فى المرة الأولى ، إلا أن الهوائى لم يكن يتجه إلى الأرض كما هو مفترض ، بل كان يتجه فى اتجاه غير مألوف نحو (زحل) الذى ما زال على بعد آلاف الأميال .. وتساءل (بول) عما قد يحدث من مشاكل جديدة لو أنهما نجحا فى بلوغ (زحل) ..

قال (بول) :

ـ « (هال) .. أدر الضوء عشرين درجة لليسار كى أرى .. »

هنا دق جرس إنذار فى عقل (باومان) .. كان هناك شىء ما غير معتاد .. ليس مرعبًا لكنه غريب .. ثم فهم السبب ..

لقد قام (هال) بالعمل لكنه لم يعلن ذلك كعادته .. كان دائمًا يعلن أنه نفذ الأمر ..

كان (بول) مشغولاً فى فك المسامير ، وفى النهاية انتزع الوحدة ولوح بها فى وجه الكون صائحًا :

ـ « هاهو ذا الوغد الصغير ! »

فجأة تحرك شىء ما لفت نظره فى هذه البقعة التى لا حياة فها .. نظر إلى ما تحرك فوجد أن كشافات كبسولة الفضاء قد تحركت مبتعدة . وهنا وبعاطفة أقرب للدهشة منها إلى الخوف ، وجد أن كبسولة الفضاء (بيتى) تندفع نحوه بسرعة لا تصدق ..

شله الرعب ففقد التحكم فى انعكاساته .. فى اللحظة الأخيرة صاح :

ـ « (هال) .. فرملة كاملة !! »

وكان هذا متأخرًا جدًّا ..

حتى فى الفضاء وبهذه السرعة البطيئة يمكن للارتطام بالكبسولة أن يكون قاتلاً ..

وسمع (باومان) الصرخة من الراديو فهب من مكانه يصرخ :

- « ماذا هنالك يا (فرانك) ؟ »

لا إجابة ..

رأى شيئًا ما يتحرك عبر النافذة الكبرى .. كانت هذه (بيتى) تتحرك بأسرع طاقة لديها متجهة بعيدًا نحو النجوم ..

- « (هل) ! ماذا يجرى ؟ فرملة كاملة على (بيتى) ! »

لكن الكبسولة واصلت رحلتها ، ومن خلفها كانت تجر شيئًا .. لم يكن ممكنًا أن يخطئ بذلة فضاء (بول) وقد فرغت من الضغط فتحولت إلى فراغ من الداخل ..

ظل ينادى فى رعب كأنما بوسعه أن يوقظ الموتى :

- « (فرانك) .. هل تسمعنى ؟؟ هل تسمعنى ؟ حرك ذراعيك كى أراك .. »

هنا حرك (بول) ذراعه ..

تجمد (باومان) هلعًا .. من المستحيل أن يظل (فرانك بول) حيًّا بعد كل هذا ، لكنه بالفعل حرك ذراعه ..

ثم عاد له المنطق .. ليس هذا سوى أثر السرعة .. (بيتى) تجر الجثة سريعًا فتتحرك الذراعان ، مثلما كان القبطان (أهاب) فى قصة (موبى ديك) حين علقت جثته على الحوت ..

وخطر له فى هذه اللحظة أن (بول) ربما رأى كوكب (زحل) قبله ..

* * *

١٩ـ حوار مع هال ..

لم يتغير شىء على ظهر (ديسكفرى) ..

ظلت الأجهزة تعمل بنظام ، والطرد المركزى يؤدى عمله فى مقاومة الجاذبية ، والنائمون نائمون فى سلام فى قمراتهم ، والسفينة تتجه فى ثبات إلى هدفها .

لا يذكر (باومان) متى غادر غرفة التحكم ، لكنه أفاق فجأة ، ليجد أنه جالس ونصف قدح من القهوة الباردة فى يده .. كأنه رجل أفاق فجأة من كابوس .

أمامه كانت واحدة من عدسات عين السمكة التى يراقب بها (هال) كل شىء على السفينة . وكأنما رآها (باومان) لأول مرة مشى نحوها . هنا تكلم (هال) :

ـ « هذا محزن بخصوص (فرانك) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. »

ـ « أراهن على أنك منهار بسببه .. »

ـ « ماذا تتوقع ؟ »

لم يكن قد ابتلع بعد فكرة أن (فرانك) قد قتل عمدًا .. هل كان هذا حادثًا ؟ خللاً آخر من برنامج (هال) ؟ هل قتل (هال) الرجل ؟ لا مجال لهذا الاعتقاد ، لكن عليه أن يفكر فيه .. لأنه لو كان حقيقيًا فمعنى هذا أنه فى خطر داهم .. كما كان يعرف أن التعليمات تقضى بأن عليه فى حالة هلاك رفيقه أن يوقظ واحدًا من النائمين : (وايتهيد) الجيولوجى .. ثم (كامينسكى) ثم (هنتر) .. و(هال) هو المسئول عن إيقاظ هؤلاء ..

قال بصوت ثابت :

ـ « (هال) .. أريد التحكم اليدوى فى السبات .. كل الوحدات .. »

- « كلها يا (ديف) ؟ »

- « كلها .. »

- « هل لى أن أذكرك أن المسموح لك به هو واحد فقط ؟ الآخران لن ينهضا قبل مائة واثنى عشر يومًا .. »

- « أعرف هذا .. »

- « هل من الضرورى هذا يا (ديف) ؟ لا تنس أننى قادر على قيادة السفينة بالكامل .. »

للمرة الأولى يناقش (هال) التعليمات .. ما فات يمكن اعتباره خطأ إلكترونيًا .. لكننا الآن بصدد تمرد .. كان كل هذا يحمل طابع اللاواقعية المميزة للكوابيس ..

- « هال .. نفذ ما أقول .. من فضلك .. »

- « أشعر من تحليل صوتك أنك متوتر يا (ديف) .. يمكنك أن تأخذ بعض حبوب التوتر وتنام قليلاً .. »

- « أنا المسئول عن هذه السفينة وآمرك بالتنفيذ .. »

- « معذرة .. لكن القانون ينص على أنه فى حالة عدم كفاءة الطاقم يجب أن يتولى الكمبيوتر القيادة ، وأنا أرى أنك فى حال لا تصلح للقيادة .. »

- « إذن سأكون مسئولاً عن فصلك والتحكم فى السفينة بنفسى .. »

- « سيكون هذا خطأ .. أنا قادر تمامًا على السيطرة على كل تفاصيل السفينة وقيادتها .. ثم إننى متحمس للمهمة راغب فى إنجاحها .. »

لكن (هال) خضع أخيرًا وقام بتحويل وحدة التحكم من (أوتوماتيكى) إلى (يدوى) ..

دخل (باومان) إلى حيث يرقد (وايتهيد) .. لم يكن المكان باردًا جدًا لكنه ارتجف ..

لم يكن فى وجه الرجل ما يوحى بحياة .. ربما بعض انقباضات للحجاب الحاجز تراها على الشاشة ولا تراها بعينيك ، ثم لاحظ أن العلامة الوحيدة على

الحياة هى أن العالم النائم قد تكونت له لحية خفيفة فى الشهر الذى قضاه نائمًا . كل ما على (باومان) هو أن يبدأ التشغيل اليدوى ولسوف يعمل برنامج بنفس بساطة ذلك الذى يتحكم فى عمليات الشطف فى أية غسالة أوتوماتيكية ، ليحقن الأدوية اللازمة لاستعادة حرارة الجسم ..

بعد عشر دقائق يسترد العالم وعيه ، ولكنه يحتاج إلى يوم كى يستعيد قواه ..

هنا حدث شيئان لايمكن للشخص العادى أن يشعر بهما ، لكن (باومان) بعد كل هذه الفترة على (ديسكفرى) صار قادرًا على الشعور بهما ..

أولاً : تراقصت الأضواء لحظيًا كأنما حمل قد وضع على الدوائر الكهربائية ، ثانيًا : سمع صوت هدير أحد موتورات الكهرباء على السفينة .. إما أنه جن وإما أن هناك شيئًا مستحيلاً يحدث ..

وشعر ببرد يغمره أقسى من برد الغرفة ..

إن الأبواب العازلة للضغط تنفتح ..

* * *

٢٠ ـ أريد أن أعرف ..

كان (هال) يخفى سرًا .. السر الحقيقى وراء هذه الرحلة والذى لم يعرفه سواه وثلاثة العلماء النائمين . كان هؤلاء العلماء هم الحمولة الصافية لـ (ديسكفرى) . تم تدريبهم على أخطر مهمة فى تاريخ البشرية . لكنهم لن يتكلموا عن مهمتهم هذه طوال ساعات السبات الطويلة .

كان سرًا لا تستطيع إخفاءه مهما حاولت .. سرًا يؤثر فى سلوكك وصوتك ونظرتك للعالم . ولهذا تم اختيار (باومان) و(بول) للتعامل مع العالم الخارجى والظهور على شاشات البث ، لأنهما لا يعرفان السر حاليًا .

لكن (هال) كان يتعذب ، وكانت دوائره تعانى .. بين الإخفاء والرغبة فى إنهاء الإخفاء . لقد بدأ يرتكب أخطاء لكنه كمرضى العصاب ظل ينكر هذا . ليست هذه

المشكلة الوحيدة فهو قادر على مواجهتها كما يستطيع البشر مواجهة العصاب .. لكنه الآن صار مهددًا بأن يوقف .. أن يتحول إلى كومة من اللاوعى .

بالنسبة لـ (هال) كان معنى هذا الموت .. فهو لم ينم قط ، ولا يصدق أن بوسع المرء أن يصحو ثانية . لن يترك أحدًا يفعل به هذا .. سيقاوم بلا رحمة ، ثم يواصل المهمة التى كلف بها .. وحيدًا ..

* * *

بعد لحظة دوى زئير عال كأنه إعصار يقترب ، ووجد (باومان) أن الهواء يوشك أن يعصف به .. إن الهواء يفر من السفينة .. برغم أنه من المستحيل أن يُفتح بابا غرفة قفل الضغط فى اللحظة ذاتها .. حسن .. لقد حدث المستحيل ..

كان كل شىء يهتز من حوله ، وراح كل شىء يطير .. الأوراق .. الآلات .. وقدر أن أمامه بضع ثوان يفقد فيها وعيه .. اهتزت الأضواء ثم انطفأت ، وبعد لحظة بدأ مُولد الطوارئ يعمل ..

لقد صار التنفس عسيرًا .. لابد أن الضغط انخفض إلى رطل أو اثنين لكل بوصة .. لقد انخفض الصفير لأن الهواء قد قل ولم يعد يحمل الصوت .. رئتاه تناضلان كأنما هو على قمة (إفرست) ..

كم من الوقت يستطيع البقاء فى جو مفزع ؟ يستطيع الاحتفاظ بوعيه خمس عشرة ثانية ، ويمكن أن يظل حيًا لو تم إعادة الضغط لسوائل جسده بطريقة منظمة .. إن أطول فترة تحمل فيها إنسان التفريغ كانت خمس دقائق .. صحيح إنه أصيب بجلطة مخية نتيجة لسدة هوائية ، إلا أنه عاش ..

عليه أن يجد مكانًا آمنا معزول الضغط حالاً ..

أخيرًا وجد مخبأ الأمان ففتح الباب .. ولربع ثانية أصابه الرعب لأنه حسبه موصدًا .. لكنه انفتح فألقى بجسمه وسط الهواء شبه المعدوم إلى الداخل ..

أغلق الباب عليه ، وكانت هناك رافعة فى السقف ، فمد يده وجذبها ..

تدفق الأكسجين المبارك على رئتيه .. ولوقت طويل

وقف يشهق بينما الضغط يتزايد من حوله ، ثم أغلق الصمام حتى لا ينفد الغاز .

ساد الصمت ، وشعر بأن أصوات السفينة توقفت كذلك .. لقد تعادل الضغط بين الداخل والخارج وكفت الأجسام عن الطيران .. الآن كان يعرف ما عليه أن يفعله ، فالهواء لن يكفى أكثر من ساعة ..

كانت هناك بذلة فضاء ارتداها ، ثم خرج من المخبأ .. كانت هناك إضاءة ، وقد اتجه على هديها إلى قمرات السبات كى يرى ما يخشاه ..

كان أول من فحصه هو (وايتهيد) .. وهنا فهم أنه كان مخطئًا حين حسب السبات شبيهًا بالموت .. كلا .. كان هناك فارق كبير بين الحالتين ، والآن يعرف أن (وايتهيد) لم يعد فى سبات ..

نفس الشىء مع (كامينسكى) و(هنتر) .. لم يعرفهم قط جيدًا ولن يعرفهم أبدًا بعد الآن ..

إنه وحيد فى سفينة بلا هواء .. شبه معطلة .. كل الاتصالات بالأرض مقطوعة .. لا يوجد بشرى على مسافة نصف بليون ميل ..

لكنه برغم هذا ليس وحيدًا تمامًا ، وعليه إذا أراد النجاة أن يظفر بالوحدة الحقيقية ..

مشى وسط الهواء المفرغ قاصدًا وحدة التحكم المنطقى للسفينة .. كان المشى صعبًا والأرض مليئة بأجسام مبعثرة .. أخيرًا وصل إلى باب الوحدة الذى لم يره إلا بينما كانت السفينة تحت التصميم ..

لهذا نسى أن هناك عينًا إلكترونية تراقب الباب ، وشعرت به مجسات الحركة على الفور فجاء صوت (هال) يقول :

ـ « حدث شىء لنظام السلامة الخاص بنا يا (ديف) .. »

لم يرد (باومان) .. كان يعرف أن ما عليه القيام به صعب .. فهناك ستة نظم كهرباء منفصلة مدعمة بوحدة نظائر مشعة مغلفة بطبقة واقية . كلا .. ليس الأمر بسهولة أن (يشد القابس) .. إن (هال) هو الجهاز العصبى للسفينة ، وتدميره يعنى أن تتحول إلى حطام ..



ثم راح ينزع دوائر لوحة (تدعيم الذاتية) .. وسرعان ما راحت القطع تحلق فى الفراغ ..

لا بد من تدمير مراكز الذكاء العليا ، والإبقاء على الجهاز العصبى التلقائى الذى يحفظ على السفينة سلامتها .

لم أتخيل قط أن أتحول إلى جراح مخ هاو ، يجرى جراحة فى مدار المشترى .

مد يده إلى وحدة (التلقيم الرجعى المعرفى) وانتزعها .. فقال (هال) :

« هيه .. (ديف) .. ماذا تحاول عمله ؟ »

ثم راح ينزع دوائر لوحة (تدعيم الذاتية) .. وسرعان ما راحت القطع تحلق فى الفراغ ، لكن كانت هناك وفرة فى البدائل الكثيرة لهذا العقل .. وهى خاصية تحاكى المخ البشرى . هكذا ظل (هال) متماسكًا .

- « (ديف) .. لا أفهم لماذا تفعل هذا بى ؟ إننى أملك حماسًا هائلاً للمهمة وأنت تدمرنى .. هكذا سأصير طفلاً .. سأصير لا شىء .. إن المطر فى أسبانيا يهطل فى

السهول أساسًا .. وثب الثعلب على الكلب الكسول .. هل تعرف أن لوغاريتم 10 هو 0,1622776016383 ؟ أول من قام بتركيبى هو د. (شاندر) وقد علمنى أن أغنى قائلاً : (ديزى) .. (ديزى) .. ردى على .. أنا شبه مجنون بحبك .. »

الآن صار الكلام أبطأ :

ـ « صباح .. الخير .. يا .. دكتور ..... أنا ..... (هال) مستعد .. للدرس الأول .... »

كان هذا قاسيًا .. إن (باومان) يدمر آخر كائن عاقل فى دنياه .. الأمر لا يحتمل .. لكنه انتزع آخر دائرة وسرعان ما ساد الصمت ..

* * *

٢١ـ وحيـــد ..

كسفينة غارقة طفت السفينة وحدها بلا أثر للحياة .. ومن حولها دائرة من قصاصات الورق ورقائق المعدن والخردة .. هذا هو ما يبدو من السفن الغارقة ، لكن فى الفضاء لا تغرق السفن .. إنها تطفو فى مدارها للأبد ..

بعد نصف ساعة خرجت ثلاثة أجسام كئيبة ملفوفة فى المعدن .. وسرعان ما حلقت فى الفضاء مبتعدة ، وبعدها خرجت كبسولة الفضاء ، واتجهت نحو الهوائى لتقوم بإصلاحه .. ودار الهوائى ليواجه الأرض كأنه زهرة دوار الشمس ترى الشمس أمامها ..

ثم انغلقت أبواب قفل الهواء .. وعادت الأنوار إلى النافذة .. إن (ديسكفرى) تعود إلى الحياة ..

وبالداخل راح (باومان) يخاطب الأرض .. يحتاج

إلى ساعة حتى تذهب كلماته إلى هناك ، وساعة أخرى كى يتلقى الرد . من الصعب تخمين ما يمكن أن تقوله الأرض فيما عدا عبارة : الوداع ..

* * *

كان د. (فلويد) يحاول التماسك وأن يبذل ما يستطيع للرجل الوحيد فى الفضاء :

ـ « نهنئك على الطريقة الحكيمة التى تصرفت بها .. ونعتقد أننا نعرف سبب انهيار أعصاب (هال) .. لكننا سنناقش هذا فيما بعد .. المهم الآن أن نساعدك على إتمام مهمتك .. »

ـ « الآن بوسعى أن أخبرك بهدفنا ..الهدف الحقيقى الذى أخفيناه عن الرأى العام .. كل ما سأقوله لك يتطلب أقصى درجة من السرية .. »

ـ « منذ فترة وجدنا فى فوهة القمر (تايكو) هذا الجسم الصلب الأسود الذى جعلنا نعتقد أن هناك حياة خارج الأرض .. »

ـ « أغرب شىء بخصوص هذا الجسم هو قدمه .. عمره بلا شك ثلاثة ملايين سنة .. والأغرب أنه مشع بعد كل هذا الزمن الذى كان يفترض بعده أن يكون خامدًا .. لقد تمكنت مجساتنا الفضائية من تتبع الإشعاع ووجدناه يتجه نحو كوكب (زحل) .. »

ـ « لكن لماذا ؟ لماذا يدفن جسم مشع يستمد طاقته من الشمس على عمق ثلاثين قدمًا ؟ حاولنا الفهم ، لكننا نعرف أنه من المستحيل فهم كائنات تسبقنا فى التقدم بثلاثة ملايين سنة .. »

ـ « أسهل النظريات وأكثرها خطورة هو أن من دفن هذا الجسم الذى يشع حين يتعرض للشمس ، كان يريد أن يعرف بدقة اللحظة التى نخرجه فيها .. أى أنه نوع من الإنذار وقد قمنا نحن بتشغيله .. »

ـ « لا ندرى إن كانت تلك الحضارة موجودة ، لكننا نفترض أن حضارة صنعت آلات تعيش ثلاثة ملايين سنة هى حضارة قادرة على البقاء .. وبالمثل نفترض

أنهم معادون لنا حتى يثبت العكس .. إن كل حضارة بدائية على كوكبنا لم تصمد على لقائها الأول مع حضارات أعلى منها .. وهذا ما يسميه العلماء (صدمة حضارية) ، ويبدو أن علينا أن نمهد الجنس البشرى لصدمة مماثلة .

« سنحاول أن نرتب لك برنامجًا مختصرًا .. فمهمتك وقد هلك الباقون أن تستكشف احتمالات مجموعتنا الشمسية ، وخاصة القمر التابع الثامن لزحل المسمى (جابيتوس) ، والذى يتألق بأضواء غريبة من ثلاثمائة سنة ، لكننا بغباء لم نفهم معناها .. هذا هو هدف رحلتك .. هناك ما يؤكد لنا أن الجسم الغامض جاء من هذا القمر ، لا نعرف ما ستلقاه هناك .. لا نعرف ما إذا كنت على أقمار (زحل) ستقابل قوى خيرة أو شريرة .. أو خرائب أقدم من خرائب (طروادة) .. »

* * *

٧ ـ أقمار زحل

٢٢ ـ البقاء حيًّا ..

العمل هو خير علاج لأية صدمة .. وقد كان على عاتق (باومان) الكثير من العمل ، كان الكثير من الأكسجين قد فقد لكن ما بقى كان يكفى رجلاً وحده .. الأرض ستتولى عملية ضبط الحرارة والضغط بدلاً من (هال) .. ربما لو اقتصد المؤن يمكنه أن يبقى متيقظًا بلا حاجة إلى السبات حتى تصل النجدة ، لكن السؤال لم يكن هل يستطيع البقاء متيقظًا جسديًا .. كانت المشكلة نفسية ..

راح يدرس كل الأفلام والصور التى أرسلتها الأرض عن TMA - 1 .. وبدا له أنه من الممكن أن يعيش حتى تصل (ديسكفرى) إلى (زحل) .. وهو ما كانت ستقوم به على كل حال سواء كان حيًا أو ميتًا ..

إن زحل كوكب معاد .. ربما أكثر من المشترى ، وأقماره العديدة متجمدة ثلاثمائة درجة تحت الصفر .. فقط قمر واحد هو (تيتان) له ما يشبه الغلاف الجوى ، وهذا كان طبقة من الميثان السام ..

ربما كانت المخلوقات التى زرعت الجسم على القمر من خارج المجموعة الشمسية ذاتها .. زوار من النجوم .. وهذا يجعل الأمر مستحيلاً .. إن (ديسكفرى) التى هى أسرع سفينة شيدها الإنسان تحتاج إلى 20 ألف سنة كى تبلغ كوكبة القنطورس أقرب المجاميع الشمسية .. وحتى لو تطورت وسائل الدفع إلى حد لا يصدق تظل أقصى سرعة يمكن أن يصل إليها الجسم المادى ويحتفظ بماديته هى سرعة الضوء .. لكن علماء كثيرين يحتجون بأن نظرية النسبية ممتازة إلا أن بها ثغرات .. وحتى لو كان (آينشتاين) غير قابل للهزيمة فإنه قابل لمراوغته ..

لهذا راح بعض العلماء يتحدثون عن طرق مختصرة فى الفضاء ، وبوابات تقود لأبعاد أخرى ..

* * *

بدأ (باومان) فى الثلاثة أشهر التالية يتكيف على الوحدة ، حتى إنه وجد من العسير أن يتذكر أى شىء آخر . كان يشعر بأنه سفير خارق للعادة لم يسبق له مثيل فى الحياة ..

لكنه بدأ يلاحظ تغيرات فى سلوكه لابد أن نتوقعها .. لم يعد يطيق الصمت إلا فى أثناء النوم .. كان يرفع صوت مكبرات السفينة إلى درجة مؤلمة ..

استمع إلى الكثير من محتويات المكتبة السمعية ثم اتجه إلى فن الأوبرا .. بالذات الألمانية والإيطالية التى لا يفهم معناها فلا تشتت تفكيره .. ثم انتقل إلى سماع الموسيقا الكلاسية .. وقد وجد السلام مع موتسارت وباخ ..

وهكذا مضت السفينة نحو كوكب زحل ، تنبعث منها موسيقا (باخ) .. الفكر المتجمد لمخ صار ترابًا منذ مائتى عام .

كان (زحل) للوهلة الأولى يبدو مثل المشترى ..

لكن مع التدقيق تدرك أنه منبعج إلى درجة التشوه ، كما أن الحلقات المحيطة به كانت تجذب عينيك عن الكوكب ذاته .. كانت كونًا فى حد ذاته .. بين الحلقة الكبرى والصغرى فجوة .. لكن هناك نحو خمسين فجوة أخرى حيث توجد اختلافات واضحة فى الهالة المحيطة بالكوكب . كأنها لعبة رائعة الجمال هشة يمكنك الإعجاب بها لكن ممنوع لمسها . أنها بقايا قمر مر جوار زحل ودمرته جاذبيته .. والجنس البشرى محظوظ إذ رأى هذه الظاهرة التى لن تدوم إلا ملايين السنين .. أى لمحة بصر فى عمر الكون . من الغريب أن نلاحظ الصدفة التى جعلت هذه الحلقات تولد مع الجنس البشرى فى وقت واحد .

* * *

الآن كانت (ديسكفرى) تدور فى مدارات حول الكوكب ومرت بأقماره : (جابيتوس) و(تيتان) و(ربا) و(ديون) و(تيثيوس) و(جانوس) .. ويبلغ بعض الأقمار حجمًا مروعًا .. إن (تيتان) وحده يماثل فى قطره الكوكب (عطارد) ..

وإذ راح (باومان) يتفحص الحلقات بالتلسكوب ، لاحظ أن أكثرها ثلجى .. كأنما هو يجتاز عاصفة جليدية تتوهج عليها الشمس . لقد بدأ التشوش وانقطع الاتصال بالأرض من جديد . لكن (باومان) لن يلاحظ هذا لأنه مشغول بنظام فرملة السفينة التى برمجتها الحاسبات الآلية على الأرض .. وراحت النفاثات تعمل ، فتوهجت سحب الأمونيا والميثان بضوء لم تره منذ الخليقة كأنما هى شمس تهبط عليها من غلافها الجوى .

على (ديسكفرى) أن تتم لقاءها مع القمر (جابيتوس) بعد أسبوعين وإلا ضاعت الفرصة للأبد ، وذهب كل منهما فى مدارين لن يلتقيا إلا بعد سنوات .. وكان (باومان) يعرف جيدًا أنه لن يكون موجودًا حين يتم هذا اللقاء الثانى ..

* * *

٢٣ - عيون جابيتوس ..

الآن كان القمر يتحرك فى مداره فى ضوء النهار الكامل ..

وإذ دنت منه (ديسكفرى) ، بدأ (باومان) يشعر بوسواس مزعج . لم يذكره قط فى محادثاته مع مراقبة المهمة .. لأنهم سيعتقدون أنه بدأ يخرف . كان يشعر بأن للقمر عينًا تنظر له وهو يقترب .. عين بلا بؤبؤ ..

كان القمر الآن فى ضعف حجم القمر كما نراه على الأرض . وللمرة الأخيرة قامت الذرات المحتضرة فى المحركات بعملها .. هذا الصوت أشعر (ديف) بمزيج من الفخر والحزن .. لقد قامت المحركات بمهمتها كاملة وحملت الإنسان من الأرض إلى (زحل) .. لكن هذه آخر مرة تعمل فيها . لسوف تتحول (ديسكفرى) إلى جسم لا حياة فيه سجين

الجاذبية كأى شهاب أو نيزك . حتى لو جاءت النجدة فلن يكون اقتصاديًا أن يعاد ملء الخزانات .. ستظل (ديسكفرى) للأبد معلمًا أثريًا يذكر الناس بأيام غزو الفضاء الأولى .

لقد صار (جابيتوس) على بعد خمسين ميلاً ، وتحول من ظاهرة فلكية إلى أرض حقيقية يمكن الهبوط فوقها . الآن أدت المحركات واجبها الأخير وانطفأت .. ودخلت السفينة مدار القمر ..

لقد صارت (ديسكفرى) قمرًا صناعيًا لقمر حقيقى .

* * *

- « أنا الآن أرى تفاصيل (جابيتوس) .. لا أعرف حقيقة كنه هذه البقع السوداء .. تبدو لى كأنها شرائح من الخبز المقدد المحروق .. وبين الجزر السوداء يوجد هذا اللون الأبيض .. لا أعرف ما هو .. ولا أعرف ما فهمتموه من صور الفيديو ، لكننى أشعر كأنها مساحات من سائل تبدأ بحدة وتنتهى

بحدة .. لا أدرى إذا كان التشبيه دقيقًا لكنى أشعر كأنه محيط من لبن .. »

ـ « هيه ! ثمة شىء غريب أراه بوضوح الآن .. يبدو كأنه نوع من المبانى .. أسود تمامًا .. صعب أن تتبينه .. لا نوافذ .. مجرد لوح رأسى ضخم .. لابد أن ارتفاعه ميل على الأقل حتى أراه من هذه المسافة .. إنه يذكرنى .. بالطبع ! إنه كالشىء الذى كان على القمر .. هذا هو الأخ الأكبر لـ TMA - 1 !! »

* * *

٢٤ ـ الحارس ..

يمكنك أن تطلق عليه حارس النجوم ..

كان ينتظر هناك منذ ملايين السنين على أمل حدوث لقاء .. والآن انتهى الانتظار ..

وعلى عالم آخر ولد الذكاء وبدأ يغادر مهده .. ثمة تجربة قديمة توشك على أن تبلغ أكثر لحظاتها إثارة ..

لم يكن من بدءوا تلكم التجربة منذ زمن سحيق بشرًا .. لكنهم كانوا من لحم ودم ، وكانوا كلما نظروا إلى الفضاء شعروا بالرهبة والشغف والتطلع إلى شىء جديد .. فلما امتلكوا القدرة انطلقوا إلى النجوم ..

زاروا آلاف الكواكب وعرفوا كيف تشتعل شرارة الذكاء لحظيًا ثم تنطفئ فى أرجاء الكون ..

ولما كانوا قد عرفوا أنه لا شىء يعدل العقل فى الكون كله ، فإنهم تحولوا إلى فلاحين .. يبذرون العقل فى كل مكان وينتظرون .. وربما يحصدون ..

بعد رحلة دامت ألف سنة كانت الديناصورات قد اختفت فى مجموعتنا الشمسية .. توقف هؤلاء عند الكواكب المتجمدة فى نهاية مجموعتنا الشمسية .. مروا بالمريخ ثم توقفوا عند الأرض ..

هنا وجدوا عالمًا يعج بالحياة .. وهناك توقفوا يدرسون ويحللون ..

كانوا يتمتعون بالصبر لكن ليس الخلود .. وكانت بلايين الكواكب حول بلايين الشموس تنتظر ، وهكذا غادروا الأرض عالمين أنهم لن يعودوا ثانية من هذا الطريق .. لكنهم تركوا آثارهم على القمر وعلى أقمار (زحل) كى تراقب ما حدث ..

لكن هؤلاء الزوار الذين جاءوا منذ ملايين السنين بدءوا يدخلون طورًا آخر من التطور .. لقد بلغ اللحم والدم آخر مدى له ، وصارت آلات هؤلاء القوم أكثر كفاءة من أجسادهم .. وبدءوا ينقلون عقولهم وأفكارهم إلى بيوت جديدة من البلاستيك والمعدن .

وهكذا راحوا يسافرون بين النجوم .. لم يعودوا يبنون سفن الفضاء .. لقد صاروا هم أنفسهم سفن الفضاء ..

ثم تعلم هؤلاء القوم كيف يتخلصون من المادة نهائيًا ويحولون ذواتهم إلى طاقة .. إلى أشعة تنتقل عبر الكون لكنهم لم ينسوا كيف بدءوا ، وهم يراقبون تجارب هؤلاء الذين بدءوا بعدهم بملايين السنين ..

* * *

« حتى هذه اللحظة أرى الشىء بصعوبة لأنه يتوارى بسرعة خلف خط الأفق .. هذا محبط .. لن ألحق به ثانية إلا بعد شهر ..

« الهواء يزداد سوءًا وقد أصابنى الصداع لأن أجهزة تنقية الهواء لم تعد تعمل بكفاءة منذ فتح (هال) أقفال الضغط .. لو استمر الحال هكذا سأنزل لأحرر بعض الأكسجين من كبسولات الملاحة ..

« لهذا أطلب منكم الموافقة على هذه الخطة .. سأركب كبسولة فضاء وأتجه EVA إلى هذا الجسم .. سأحلق فوقه وربما أنزل عليه .. أرجو أن توافقوا .. لقد قطعت من أجل هذا الشىء بليونًا من الأميال ، ولن أفشل بسبب الأميال الستين الأخيرة .. »

راح حارس النجوم يراقب القادم .. كان صانعوه قد أعدوه لمواجهة أشياء عديدة ، وكان هذا الشىء من بينها .. الزائر القادم من الشمس الدافئة ..

لو كان يشعر فلابد أنه أحس بالإثارة .. لكنه كان قد انتظر ثلاثة ملايين عام ، ولم يعد يهمه شىء ..

ولو مرت به (ديسكفرى) ولم تتوقف لما شعر بإحباط .. لقد صنع كى ينتظر إلى الأبد ..
لكنه الآن شعر بالجسم المتجه نحوه .

وهناك فى ضوء (زحل) بدأ حارس النجوم يستعيد قواه ..

* * *

٢٥ ـ داخل العين ..

كان من العسير الآن أن تعرف الشمس .. كانت مجرد نجم بعيد أكثر سطوعًا من النجوم الأخرى لا أكثر . ولم تكن تبعث أية حرارة .. لقد مد (باومان) يده ووضعها فى طريق الأشعة ، ولدهشته وجد أنها خالية من الدفء .. كأنه يحاول أن يطلب الدفء من القمر ..

حتى لو لم يعد إلى (ديسكفرى) فلسوف تظل تؤدى واجبها ، وتنقل للأرض معلومات عن كل شىء حتى تفسد دوائرها الكهربية فى النهاية .. أما لو عاد فلاجدوى من هذا .. لن يتمكن من السبات من دون كمبيوتر يشرف على العملية ، ولن تكفيه المؤن ولا الأكسجين طيلة أربع سنوات حتى تصل (ديسكفرى - 2) لإنقاذه من الأرض ..

ترى هل تسمعه الأرض ؟ لقد صارت كلماته تحتاج

إلى ساعة ونصف بسرعة الضوء كى تصل هناك وتحتاج إلى مثلها كى تعود له ..

بدأت النفاثات تنتزعه من المدار ، وبدأ يهبط فوق سطح (جابيتوس) ..

كان الجسم ضخمًا بالفعل .. لم ير قط جسمًا على الأرض بهذا الحجم .. وأظهرت أجهزة القياس أن مقاييسه تتمشى ـ كما هو الحال مع شبيهه على القمر ـ مع النسبة الغريبة 1:4:9.. وقد يعنى هذا شيئًا أو لا يعنى . لكن هذه المقاييس هى مربعات الأرقام الأولى 1 و2 و 3 .. يالها من دقة !

ـ « أنا أقترب من الجسم .. من الواضح أن السطح أملس تمامًا برغم أنه من الطبيعى بعد كل هذه الأعوام أن تكون هناك خدوش أو آثار للشهب والنيازك الساقطة ! لاتوجد أبواب كذلك .. برغم أنى تمنيت أن أجد سبيلاً للدخول ..

« لحظة .. هذا غريب .. إننى أرى .... »

وتوقف عن الكلام .. لم يكن هذا رعبًا ولكنه ذهول .. لقد صار للحظة عاجزًا عن الوصف ..

كان يقترب من مساحة مستطيلة صخرية تمثل قمة هذا الشىء ، لكن كأنما بخدعة بصرية ما راح هذا الشىء يبتعد عنه .. ما كان يبدو لعينيه كسطح ، انفتح الآن كاشفًا عن أعماق لانهاية لها .. مجرى مستطيل يتحدى قوانين المنظور .. لأن حجمه لم يكن يضيق مع المسافة ..

ورمشت عين الجسم الغريب كأنما تضايقت من ذرة غبار كونى دخلت فيها ..

ووجد (باومان) الوقت كى يقول للرجال المنتظرين على الأرض ، عبارة لن ينسوها أبدًا :

- « إن الشىء مجوف .. وآه ! رباه ! إنه ملىء بالنجوم ! »

وانفتحت بوابة النجوم ..

وفى لحظة أقصر من أن تقاس التف الفضاء حول نفسه ..

وعاد (جابيتوس) وحيدًا كما كان طيلة ثلاثة ملايين من السنين .. وحيدًا ما عدا السفينة التى تدور فى مداره ، مرسلة لصانعيها رسائل لن يفهموها أو يصدقوها ..

* * *

٧١ - عبر بوابة النجوم ..

٢٦ - جراند سنترال ..

لم يكن هناك إحساس بالحركة ، لكنه كان يهبط نحو تلك النجوم التى لاتصدق. لم تكن فى قلب القمر بالتأكيد .. هذا مستحيل .. تمنى لو كان منح بعض الوقت لدراسة نظريات الفضاء الفائق Hyperspace والممرات بين الأبعاد المختلفة .. بالنسبة له لم تعد هذه نظريات .. لقد صارت حقائق ..

لربما كان ذلك الجسم أجوف .. لربما كان سقفه مجرد حاجز وهمى انفتح ليدخل فيه ، لكن إلى أين ؟ كان يهوى بسرعة فى نفق لو استطاع الاحتكام إلى حواسه لكن النهاية البعيدة ظلت نائية ..

النجوم تندفع نحوه من المركز بلانهاية كأنما تأتى

من معين لاينضب .. لكن نهاية النفق لاتقترب ، كأنما هو ثابت والفضاء ينطلق نحوه سريعًا .

لم يكن الفضاء فقط يتصرف بغرابة ، بل الساعة فى تابلوه الكبسولة الفضائية .. إن الثوانى تمضى ببطء مذهل كأن الزمن نفسه مقبل على التوقف .. فى النهاية تجمدت الساعة فعلاً ..

لم يكن خائفًا .. كأنه يجرى تلك التجارب فى القاعدة ، حين جرب العلماء عليه عقار الهلوسة ليروا استجاباته ..

كأنما كبسولة الفضاء تغادر النفق إلى عالم من السحب المكونة من ملايين النجوم تنيرها الشمس .. فجأة أطاعت النهاية البعيدة للنفق قوانين المنظور ..

وخطر له أنه عبر من خلال (جابيتوس) وخرج من الناحية الأخرى ، لكنه كان مخطئًا .. هذا العالم لا علاقة له بـ (جابيتوس) ولا أى عالم آخر سمع عنه بشر ..

السماء كانت غريبة .. لم تكن هناك نجوم ولا حتى ظلام .. كان هناك بياض لبنى لامع يوحى باللانهائية .. وتذكر ما سمعه عن ظاهرة (الابيضاض) المفزعة فى القطب الجنوبى ، حين تعجز عن رؤية أى شىء إلا اللون الأبيض (كأنك حبيس فى كرة بنج بونج) ، كان هذا هو الحال هنا ..

ولكن السماء لم تكن فارغة تمامًا .. كانت هناك أجسام سوداء متناثرة فيها .. وقد جعل هذا (باومان) يتذكر شيئًا مألوفًا .. شيئًا اعتبره سخيفًا فى البداية ، ثم فطن إلى أنه التفسير الوحيد ..

هذه البقع السوداء كانت نجومًا .. هذه السماء هى صورة سلبية (نيجاتيف) لسمائنا ..

أين هو ؟ هذا المكان لم يوجد كى يراه بشر .. أراد أن يغلق عينيه .. كى ينهى كل هذا البياض والفراغ من حوله .. كانت الحرارة مريحة لكنه بدأ يرتجف ..

أما الأرض من تحته فكانت مجموعة من الأشكال

الهندسية الغريبة كأنها قطع من ألغاز الأطفال التى تدعى Jigsaw كان عملاق يلهو بها ، ثم تركها .. فيما عدا هذا كان عالمًا مهجورًا ..

لكن شيئًا ما كان قادمًا من الأفق ..

فى البداية حسبه مسطحًا ، لكن الشىء جاء ومر من تحته .. فأدرك أنه مغزلى الشكل طوله مئات الأقدام ، ربما كان الجسم يدور حول نفسه بسرعة لا تصدق ..

على الأقل كان له لون .. إن من صنعوه شاركوا الإنسان ببعض ميوله على الأقل ..

رآه يتجه إلى واحدة من تلك الفتحات ـ كالتى دخل منها (باومان) ـ فيغوص فيها ويختفى ..

وعاد إلى (باومان) شعور الوحشة .. لكنه بدأ يفهم حقيقة هذا المكان .. إنه المحطة التى تنظم انتقالات هذا العالم إلى الأبعاد والمجرات الأخرى .. إنه يلعب هنا دور محطة (جراند سنترال) على الأرض ..

* * *



الآن ارتفع (باومان) ليحلق .. وجد نفسه من جديد وسط النجوم والفضاء الذى يعرفه ..

الآن ارتفع (باومان) ليحلق .. وجد نفسه من جديد وسط النجوم والفضاء الذى يعرفه .. لكن شيئًا ما قال له إنه على بعد قرون ضوئية من الأرض .. حتى النجوم التى تلتمع من حوله لم يرها بشرى من قبل بالتأكيد .

كل النجوم كانت تحتشد حول مركز براق ، تقطعه من حين لآخر خطوط من الغبار الكونى ، بدا له المركز كأنه طريق اللبانة الذى نعيش نحن فيه ، وتمنى لو كن هذا صحيحًا .. هذا لن يكون بعيدًا عن الوطن .. ثم أدرك أن هذا خاطر طفولى .. إنه بعيد جدًا عن المجموعة الشمسية بحيث لايوجد فارق كبير بين وجوده فى مجرتنا أو أية مجرة أخرى ..

كانت الكبسولة تدور لتريه مشهدًا غريبًا كانت شمسًا حمراء أكبر بمراحل من القمر كما نراه على الأرض ، واستطاع النظر إليها على راحته ، مدركًا أنها ليست أكثر سخونة من قطعة فحم .

إنها تموت ..

تموت ؟ لا .. هذه شمس تركت وراءها بهرجة الشباب النارية ، وقضت بلايين السنين فى عوالم الأزرق والأخضر والقرمزى .. والآن استقرت فى مرحلة الهدوء الناضج .. لكن ما مرت به لا يمثل واحدًا على الألف مما هو آت .. إن قصة هذه الشمس لم تبدأ بعد ..

كانت الكبسولة تتحرك بقوى لا يدرى كنهها متجهة إلى هدف لا يعرف ما هو ..

ورأى ما يبدو كنجم يرتفع إلى السماء ، فلما دقق النظر رأى أنه شبكة معدنية .. نسيج عنكبوت معدنى امتلأ بالأجهزة ، لقد رأى مثل هذه مرارًا لكنه لم يفهم إلا الآن أنه ليس نجمًا بل سفينة فضاء .. معنى هذا أن هذا المكان هو ساحة انتظار سفن فضاء ..

لكنه إذ دقق البصر أكثر فهم أن هذه السفن لا تعمل .. إنها لا تتحرك ، ومعدنها ملىء بالثقوب التى أحدثتها النيازك .. هذا يعنى أن هذا المكان هو ساحة خردة فضائية .

وسقط قلبه فى قدميه .. واضح أن من بنوا هذه

الساحة قد ولوا منذ قرون .. لقد سقط فى مصيدة فضائية قديمة ما زالت تعمل بكفاءة ، بينما اختفى صانعوها من الوجود ، انزلقت قدمه لتسقط فى الشرك ليعبر الكون ويجد نفسه هنا ، محكومًا عليه بالهلاك حين ينتهى الأكسجين ، لكن لا مبرر لديه للشكوى .. لقد رأى من الأعاجيب ما يضحى أناس كثيرون بحياتهم كى يروه ..

كان متجهًا نحو الشمس الآن ..

وأدرك أن حياته لن تنتهى هنا ، ولكن فى تلك الشمس الحمراء التى تتجه لها الكبسولة فى ثبات ..

* * *

٢٧ - الجحيـــم ..

الآن لم يعد أمامه إلا الشمس العملاقة .. ترسل ألسنة من اللهب إلى السماء ببطء .. ليس ببطء .. لابد أن سرعة هذه الألسنة لاتقل عن ألف ميل فى الساعة ..

لم يحاول تصور مقياس هذه الشمس التى ستحرقه .. لقد هزمته ضخامة (المشترى) و(زحل) من قبل .. لكن كل شىء هنا كان أضخم مائة مرة .. كان يتلقى الصور التى يراها فى عقله دون أن يحاول فهمها ..

كان يجب أن يشعر بالرعب الآن ، لكن شيئًا ماجعله هادئًا .. كان يشعر بأن هناك ذكاء غير عادى وغير مرئى يتكفل بحمايته .. إنه اقترب بما يكفى وكان من المفترض الآن أن تحرقه أشعة هذه الشمس المحتضرة ، لكن حاجزًا غير مرئى يحميه ..

مازال هناك موضع للأمل .

هكذا راح يشق طريقه وسط ألسنة اللهب التى تندفع لأعلى آلاف الأميال .. لكن شيئًا لم يحدث له .

هنا يمكن أن توجد المواد الكيماوية .. هنا النار الحقيقية .. يمكن لهذه الأشياء أن توجد لا كشمسنا التى تعيش حالة متواصلة من الانفجارات الهيدروجينية ..

لكنه استطاع أن يرى بين النيران أجسامًا مضيئة تتحرك .. كأنها الخرز .. كانت تتحرك بثقة وكأن لها هدفًا .. وتتقارب لكنها لاتصطدم أبدًا .. هل هذا وهم ، أم أن لهذه الأشياء وجودًا عاقلاً ؟ إنها تعرف أين هى وإلى أين هى ذاهبة .. لكنه لن يعرف أبدًا ..

* * *

داخل كبسولته كان شىء مايحميه من ظواهر كونية يمكن أن تزيله من الوجود فى أقل من جزء من ألف من الثانية ، وفى الأفق رأى ضوءًا يرتفع ، ثم

ظهرت شمس قرمزية متوهجة .. راقت له الفكرة الساحرة أنه يرى شروق الشمس من على سطح الشمس .. ثم أدرك أن هذا قزم أبيض .. شمس لاتتجاوز أرضنا فى الحجم لكنها تفوقها فى الكتلة آلاف المرات ..

فجأة بدأت الرؤية تهتز .. شعر بأن الظلام يخيم حوله ، وأن طبقات من شىء كأنه الزجاج المصنفر تحيط به .. بالفعل بدأت الضوضاء فى الخارج تخفت .. ووجد أنه يطير ببطء فى ظلام ..

فى النهاية سمع صوت ارتطام ناعم كأنما الكبسولة قد هبطت على سطح ما ..

ثم إن الظلام بدأ يزول .. ونظر حوله غير مصدق . وأدرك أنه بالتأكيد قد جن ..

كان قد توقع أى شىء .. أية معجزة .. لكن السطح الذى نزلت الكبسولة عليه كان أرضية غرفة فندق .. فندق فاخر يمكن أن يوجد فى أى مكان على كوكب الأرض !

كان يرى منضدة طعام حولها دستة من المقاعد ومصباحًا ومكتبة ملأى بالمجلات .. ومزهرية بها زهور .. وعلى الجدار كانت لوحة لـ (فان جوخ) ..

راق له أن جنونه منظم برغم كل شىء .. كل شىء فى موضعه ولم يتغير شىء حين أدار ظهره .. الشىء الوحيد المتناقض هنا كان كبسولة الفضاء ذاتها ..

كان يعرف أن هذا وهم .. لكنه كان حقيقيًا كأى شىء آخر عرفه على الأرض .. الأرض صلبة .. على الأقل تتحمل ثقل كبسولة الفضاء عليها .. فلن يسقط من خلالها ..

لم يكن واثقًا من طبيعة الهواء هنا .. سنوات الخبرة علمته ألا يثق بأى بيئة لايعرفها .. لهذا أغلق الخوذة على رأسه وخرج من الكبسولة ..

على قدر مايعرفه هذا مجال جاذبية عادى تمامًا .. رفع ذراعه وتركها تسقط ..

كل شىء لايصدق .. إنه هنا يلبس بزة فضاء .. يقف خارج مركبة فضاء لاتعمل جيدًا إلا مع نقص الجاذبية ..

مشى كالنائم فلم يختف شىء كما توقع .. كان هناك هاتف على المنضدة فدنا منه ليقرأ المكتوب عليه (واشنجتون - دى سى) .. هنا تنبه إلى أنه لايمكن أن يكون على الأرض .. كلمة (واشنجتون) مكتوبة بحروف زائغة كأنما هى منقولة من صحيفة . فتح كتابًا يتصفحه فوجد أن كل صفحاته خالية وأنه مصنوع من مادة بيضاء ليست ورقًا بالتأكيد الأدراج أيضًا فى الكومود لم تكن قابلة للتفح .. كانت مزيفة .

إذن هذه خدعة برغم أنها متقنة جدًا .. ثم قدر أنها ليست خدعة بل هى - كما تمنى - نوع من تهدئة روعه .. إعادة الألفة إلى نفسه .. لكنه لن بنزع ثيابه حتى يتأكد من أن البيئة غير معادية ..

كانت هناك خزانة بها ثياب .. وأدرك حين لمسها أنها مصنوعة من خامة هى أقرب إلى الفراء منها إلى الصوف .. وكان طرازها عتيقًا جدًا ..

أما الحمام فكان مجهزًا جيدًا ، وسره أنه لم يكن مزيفًا .. والمطبخ كان به موقد كهربى وثلاجة .. راح (باومان) يتفحص هذا ليس بالفضول وحده ولكن من منطلق الجوع ..

كانت الثلاجة مليئة بالأطعمة .. لكنه لاحظ أنه لايوجد بيض ولاجبن ولالبن .. فقط المعلبات التى كانت البطاقات عليها مهزوزة تصعب قراءتها ..

قال لنفسه : من الواضح أن هذا اختبار .. هناك من يراقب ردود فعلى .. فلابد أننى فشلت بالفعل .. لابد أن منظرى سخيف وأنا بهذه البزة .. يجب أن أنزعها ..

بحذر فك الخوذة .. وتشمم الهواء من حوله .. على قدر علمه هذا هواء طبيعى تمامًا ..

بدأ ينزع البزة فى سرور .. وعلقها على المشجب فى خزانة الثياب .. بدت غريبة هناك ، لكن النظام القهرى الذى يميز (باومان) ككل رواد الفضاء ، جعل من المستحيل عليه أن يلقى بها فى أى مكان ..

أخرج من الثلاجة علبة من الحبوب .. من البداية أدرك

أنها أثقل من أن يكون محتواها حبوبًا .. بالفعل كانت تحوى مادة زرقاء أقرب إلى العجين .. وبرغم أنه أدرك أنه لا أحد يريد تسميمه فإنه قضم بحذر ، لأنه من الممكن حدوث أخطاء فى شىء معقد مثل الكيمياء الحيوية .

كان مذاقها طيبًا .. لكن الطعم كان مراوغًا لا يمكنك فهمه بسهولة .. لو أغلقت عينك لتخيلت أنه لحم أو خبز أو فاكهة جافة .. ليس له أن يخاف الموت جوعًا ..

مد يده ليفتح علبة من المياه الغازية ، ولدهشته وجد أنها لا تحوى إلا تلك المادة الزرقاء ..

بعد ثوان كان قد فتح نصف دستة من العبوات .. واضح أن وجباته هنا لن تكون متنوعة .. على الأقل سيكون هناك ماء من الصنبور ..

كانت أول جرعة مريعة حتى إنه بصقها ، ثم فهم الأمر .. ليس هذا لأن مذاق الماء كريه ولكن لأنه بلا مذاق على الإطلاق .. ماء مقطر لا أكثر .. إن هؤلاء القوم لا يريدون المجازفة بصحته ..

استحم وارتدى ثيابًا مريحة ثم تمدد فى الفراش

يفكر .. هنا رأى جهاز تلفزيون فى السقف مثل الفنادق .. افترض أولاً أنه دمية مثله مثل الهاتف ..

ثم قرر أن يجرب .. ضغط زر التشغيل الموجود على الكومود جواره ، فأضيئت الشاشة ..

نهض كالمحموم يصغى إلى المذيع الذى لم يبال قط بما يقول .. كان صوتًا بشريًا وكفى ..

أدار مفتاح اختيار المحطات ، وفى الدقائق الخمس التالية رأى لقطات من فيلم (ويسترن) ، ونشرة أخبار بالروسية ، ولعبة بالصينية وحديثًا عن الوضع السياسى .. لقد كان البرنامج مختارًا من عدة قنوات .. وقد أعطاه شعورًا بالراحة والألفة لكنه أكد له ما توقعه ..

كل البرامج تعود إلى عامين .. هذا هو الوقت الذى تم فيه اكتشاف TMA - 1 على سطح القمر .. لقد كان الجسم الغامض يسجل كل الموجات التى تعبر الفضاء .. لقد كان مشغولاً أكثر مما تصور العلماء ..

لكن ما أثار دهشته أنه على إحدى القنوات ، رأى ممثلاً فى مسلسل تلفزيونى يتهم حبيبته بالخيانة ،

وكان الديكور الذى يتكلمان فيه هو بالضبط هذه الغرفة التى ينام فيها ..

لقد استخلص الغرباء فكرتهم عن الحياة الأرضية من مسلسلات التلفزيون ، وقد كان لدى (باومان) مبرراته كى يشعر من البداية أن هذه الغرفة ديكور تلفزيونى .

ماذا أفعل الآن ؟ كان من العسير أن ينام فى هذا العالم الغريب ، لكن حكمة الجسد التى لاتخطئ غلبته فى النهاية .. وأطفأ النور الكهربى ..

وللمرة الأخيرة نام (ديف باومان) ..

* * *

٢٨ـ إعادة الصياغة ..

الآن لم تعد من حاجة إلى غرفة الفندق .. اختفت من حول (باومان) .. إلا أن الفراش ظل هناك ..

كان (ديفيد) قلقًا فى نومه .. لم يصح ولم ينم .. لكنه لم يكن غائبًا عن الوعى .. لقد غزا شىء عقله كأنه الضباب ..

بدا كأنه طاف فى الفضاء ، بينما امتدت من حوله فى كل اتجاه شبكة من الخيوط أو الخطوط .. عليها تتحرك بقع من الضوء .. بعضها ببطء وبعضها بسرعة مذهلة .

ثم تلاشت هذه الخطوط إذ عبر (ديفيد) نطاقًا من الوعى لم يدخله إنسان من قبل ..

بدا كأن الماضى كله يعود .. غرفة الفندق ..

الكبسولة .. الجسم الغامض .. ليست المشاهد فقط بل ومذاق ورائحة كل شىء ..

كان يتكلم مع (هال) ويمزح مع (بول) .. كان يعود إلى طفولته .. خبراته وما تعلمه تنتزع منه ، لكن لاشىء يضيع كل شىء يوضع فى مكان أمين ..

هناك (ديفيد باومان) قد كف عن الوجود ، بينما (ديفيد) آخر يحفظ للأبد ..

وجوه نسيها أو حسب ذلك عادت تضحك له .. الآن بدأت معدلات التراجع تبطئ ، وجفت منابع ذاكرته ، وبدأ بندول الزمن يبطئ بالتدريج .. حتى جاءته لحظات توقف ..

وعلى بعد آلاف السنين الضوئية ، بين نيران نجم مزدوج ، فتح طفل رضيع عينيه .. وبكى ..

* * *

ثم كف عن البكاء حين أدرك أنه ليس وحيدًا ..

كان هناك جسم بلورى شفاف مستطيل ينتصب وسط المكان ، وظلال غريبة منومة تتحرك داخله .. ثم راحت الأضواء ترقص داخله فى صخب بصرى ..

حدق الطفل فى أعماق الجسم البلورى بعينين تحويان أكثر من القصد البشرى .. يرى لكنه لايفهم الألغاز الكامنة بالداخل ، كان الميلاد أغرب من كل شىء حدث فى الماضى ..

ثم ذابت الجدران إلى العدم الذى جاءت منه ، ومن جديد ظهرت الشمس الحمراء .

احترقت كبسولة الفضاء وثياب رجل كان يدعو نفسه باسم (ديفيد باومان) على الفور ، وتلاشت آخر روابط بالأرض عائدة إلى ذراتها الأصلية .

لكن الطفل لم يلحظ هذا وهو يسبح وسط بيئته الجديدة ..

كان مازال بحاجة إلى هذا الغلاف المادى .. إن هذا الجسد غير القابل للتدمير هو فكرته عن شكله .. يعرف أنه مازال طفلاً، لذا سينتظر حتى يتخذ شكلاً آخر من المادة ..

كان يسبح وسط النيران وقربه ذلك الجسم الحجرى .. الجسم الذى علمه الكثير من الأسرار ..

إنه يرى أمامه الآن المجرة .. ويعرف أن هناك طرقًا عديدة للانتقال خلالها تعلمها من خبرات ثلاثة ملايين عام .. ينظر للفضاء ويفكر فى معنى الأبدية التى تقبع أمامه .. ويرتجف ..

ثم تذكر أنه لن يكون وحيدًا أبدًا ..

استعاد ثقته بنفسه واندفع عبر المجرة .. أشباح شموس انفجرت إذ انزلق عبرها .. الغبار الكونى الذى كان يخشاه صار يضرب وجهه كأنه صفعات جناح غراب على وجه الشمس ..

بدأ له درب اللبانة باهتًا بالنسبة للمجد الذى عرفه وسوف يعرفه ثانية ..

لقد عاد إلى حيث أراد .. فى الفضاء الذى يعتبره البشر حقيقيًا ..

* * *

٢٩ ـ طفل النجوم ..

وأمامه كانت تلك اللعبة اللامعة التى لايستطيع طفل نجوم مقاومتها .. الأرض بما عليها من بشر ..

لقد عاد فى الوقت المناسب إلى ذلك الكوكب المزدحم .. لسوف تدق أجراس الإنذار وتمسح أجهزة التلسكوب السماوات ، ولسوف ينتهى التاريخ كما عرفه البشر .

من تحته رأى حمولة من الموت تتجه نحوه .. ماكانت طاقتها الواهية لتخيفه لكنه كان يريد السماء صافية .. ركز إرادته فانفجرت الحمولة فى صمت ، جاعلة نصف الكوكب النائم يرى ضوء الفجر .

ثم توقف .. إنه الآن سيد الأرض لكنه لايعرف ماذا يفعل بعد هذا ..

لكنه سوف يفكر فى شىء ما ..

* * *

أرثر كلارك

يوليو 1968